مطبوعات مكتبة مصر

إبريستم
أو

غرام حائر

تأليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

تجـربة شخصيـة

تحدثت عن المعاناة التى لاقيتها أثناء كتابتى لأول تجربة فنية فى قصة قصيرة سنة ١٩٤٧ ، وسأتحدث اليوم عن تجربة جديدة ومعاناة أطول فترة وأكثر طرافة وأقدم عهدا ، فلقد كنت فى عهد الشباب الباكر ... أيام كان القلم بالنسبة للطائفة التى أنتمى إليها ... طائفة الكتاب قبل أن يعرفوا ، أشبه شىء بالصديق الذى يستمع إلى كل ما يقال فى صمت ودون اعتراض .

كنت فى الثامنة عشرة من عمرى على التحديد ، ومنذ بلغت سن السادسة عشرة حاولت أن أنظم الشعر لكننى أحسست أن الأشياء التى بداخلى أكثر حرارة وحياة من الأبيات التى أسطرها على الورق ... فيئست ! غير أن المشاعر الفنية فى نفس كل شاب تتلمس بطبعها طريقها للخروج ، فإذا ضاق عنها باب بحثت عن باب جديد . لذلك وجدتنى ذا صيف أمسك القلم وأبدأ فى كتابة قصة طويلة ، وكنت وقتئذ فى الثامنة عشرة من عمرى على التحديد ..

لا تزال أوراق هذه القصة موجودة عندى ، ولا زلت أنظر إليها كتذكار عزيز يحمل ملامح الشباب وإن كان لا يحمل دلائل النضج . ولن أستطرد .. فلقد كان أهم عيب وقعت فيه هو أننى لم أرسم الخط العام للقصة ، فلم أفعل أكثر من أن قلت فى نفسى إنها قصة حب غير متكافئ ، البطل فيها من الطبقة المتوسطة والبطلة من الطبقة العليا ، لكن كيف أحب كل منهما الآخر ؟

إننا نكتب قصص الحب بطريقة تتناسب مع أشياء كثيرة فينا .. منها السن ، ومنها نوع التربية دينية أو غير دينية ، ومنها بيئة الأبوين .

ولما كنت شابا حديث السن نشأت فى بيئة ريفية متدينة .. لما كنت كذلك لم يكن هناك مفر من أن أجعل الحب بين الشاب والفتاة يقع من أول نظرة وبشكل تمتزج فيه العفة بالمخاوف ، ولم يستطع أن يصارحها بحبه إلا بعد أن وفق فى جهاده وعين فى السلك الدبلوماسى وكان على وشك الرحيل إلى الخارج .

وقد وقعت بذلك فى خطأ وإن كان الموقف من ناحية التشويق والهزات مقبولا ، فلو أننى كتبتها الآن لجعلت هذا الشاب الذى يمثل طبقة أقل يتقلد منصبا يرفعه فى نظرها دون أن يرحل عن الوطن ، حتى يكون ميدان المعركة موحدا ، وحتى أتيح للصراع الطبيعى فرصة هى لا شك أكثر من الصراع الذى وقع وكل من البطلين فى أرض غير أرض حبيبه .

وإذا كانت طبيعة البعد إذكاء الحب فى القلوب ، فإنه له أيضا طبيعة ثانية هى أنه يثير الوساوس ويتيح الفرص للنسيان . لأن تغيير المناظر يغير الأفكار ، ولقاء الوجوه الجديدة يمنح التجارب والفرص .

لكننى حين كتبت هذه القصة من زمن بعيد ، لم أفعل أكثر من أن أجعل البعد يذكى الحب فى القلوب ، لأننا فى السنوات الباكرة من أعمارنا نقدس الإخلاص وإن كنا نخون ونقدم على التضحية فى إحدى اللحظات بأعمارنا ، وإن عشنا ما فات من العمر تحت سلطان الأنانية . نعم ، مع أننى لو كتبتها اليوم لفتحت أمام هذا الشباب فى الخارج ما يجب أن يفتح من أبواب.. مثل أن أجعله يلقى فتاة من الطبقة المتوسطة هناك ، لكنها ذات عقل وتفكير يزرى بتلك الأرستقراطية التى عبدها قبل أن يسافر .. لأنه ربما رأى فيها فقط رمزا أو عدة رموز لأشياء حرم هو منها وحرم منها أبوه وحرمت منها أمه فود أن يملكها ... مثل العطر الفاخر والمركبة والشعر الذهبى والكلمات التى تخرج من طرف الأنف وأعلى الشفة .

لكن الذى حدث فى قصتى القديمة هو أننى جعلت البعد يحرق قلبيهما على

الرغم من أنه انقطع عنها أربع سنوات لأسباب قاهرة ، فلما آن الأوان وركب الباخرة عائدا إلى وطنه غرقت به .

وإننى أسأل نفسى الآن : لماذا أغرقت الباخرة بهذا الإنسان الطيب ؟! إن ثورة البحر والعواصف ربما كانت أرحم من قلمى عليه لأن ذلك كان فى وقت غير مناسب عندما كانت حبيبته تنتظر عودته . أما الجواب فهو أننا نصنع الحوادث فى السن المبكرة بالطريقة التى نشعل بها السيجارة فى هذه السن .

فهل رأيت شابا يشعل السيجارة بتواضع أو لأنها ضرورة ؟ ومع ذلك يصبح العمل الفنى بالنسبة للكاتب بمرور الزمن « قضية » مثل قضية التدخين ... لا يرى منها شيئا إلا العيوب .. ولعل الناس من حوله « وأقصد النقاد » ينظرون إليه نفس النظرة فيقولون له : لماذا تكتب هكذا ؟! ويقعون فى الأخطاء . كما يقولون له : لماذا تدخن ؟! وهم يدخنون .

إننا بشر ، وسيظل سعينا نحو الكمال أبديا .

محمد عبد الحليم عبد الله

المقـدمـة

بقلم الأستاذ : حلمى القاعود

إبرَيسم .. ورهبة اللقاء

١ ـــ أسمح لنفسى أن أذيع شيئا كان صاحبه يعتبره سرا أو شبه سر فى حياته، فضن به على الناس، وأخفاه طى الكتمان، حتى طواه الزمان وصار هو وما أخفاه ملكا للتاريخ ، فى ذمة التذكار ،وميراثا لمن خلفه من أهله وذويه . وإنى لأعتبر هذا الميراث ملكا للناس جميعا ، فهو ليس مالا أو عقارا أو آثارا مادية يمكن الاختلاف عليها أو التنازع فيها ، بل هو مجموعة كلمات نيرة تضىء العقل وتمسح بأشعتها مستنقعات التخلف النفسى والاجتماعى .

وليست القضية الآن مدى أحقية الناس فى ما خلفه الكاتب من آثار أدبية أو نتاج فكرى ، وإنما القضية هى قيمة هذه الآثار وذلك النتاج .. لأن كل شىء أصبح بالضرورة فى أيد أخرى وإن اليد التى كانت تحرسها تعجز أن تمنع عنها أحدا بفعل الزمان والأقدار !.

ولقد كان المرحوم محمد عبد الحليم عبد الله من النفر الذين يؤثرون الصمت حيال بعض أعمالهم سواء ما نشر منها أو ما لم ينشر ، فقد صرح لى ـــ رحمه الله ـــ ذات يوم ، بأن إحدى قصصه المنشورة لم تعجبه شخصيا ، ولم يرض عنها فنيا ، ومن ثم فإنه رغم الإلحاح عليه لم يقبل بإعادة طبعها ، فى حين أن بقية كتبه

طبع مرات كثيرة وبكميات أكثر من الكميات السابقة(١) .

وكان من نتاجه الذى لم ينشر فى حياته باكورة إنتاجه الذى اعتز به اعتزازا جعله يضعه فى حرز أمين : قصة « إبريسم » أو « غرام حائر » وقد كتبها فى عامى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ وفى أثناء دراسته طالبا فى مدرسة دار العلوم العليا — كلية دار العلوم الآن — وكتب معظمها فى قريته(٢) تحت ظلال الأشجار الوارفة وبين خضرة الحقول الزاهرة ، وكان معه آنئذ أحد أشقائه يشاطره آلام المخاض ومعاناة الميلاد ، وكان عمره آنئذ حوالى الثانية أو الثالثة والعشرين ، وهى سن مبكرة نوعا بالنسبة لروائى المفروض عليه أن يكون قد خاض عباب الحياة وشرب من تجاربها الكثير . وإذا كانت هذه السن المبكرة تعد بداية الاحتكاك الحيوى مع العالم الاجتماعى والفنى الذى يحيط بالأديب ، فإنها بالنسبة لمحمد عبد الحليم عبد الله تعبر عن مدى رؤيته للأشياء المحيطة به وتفسيره لها وتفاعله معها ، وتوضح قدرته على التوفيق أو عجزه بالفشل إزاء الفكر القائم والفن المنتظر .

٢ — وتدور أحداث القصة فى مملكة من الممالك المجهولة الاسم والمكان والزمان ، وأبطالها الرئيسيون ثلاثة : صديقان — رجاء وسداد — وفتاة هى « إبريسم »(٣) بنت ملك المملكة ، وهو ملك بلا اسم أيضا ولا ملامح ، مثله فى ذلك

---

(١) القصة التى حدثنى عنها هى « الوشاح الأبيض » وتجرى حولها مفاوضات لإخراجها سينمائيا ، وأرى أن رأى النقاد يختلف عن رأيه .

(٢) هى قرية « كفر بولين » مركز كوم حمادة بحيرة .

(٣) « إبريسم » معرب وليس عربيا خالصا — راجع المختار .

مثل أبطال القصة فلا تعرف إلا اسما مفردا لكل منهم ، وكل الأسماء تقريبا يصح إطلاقها على الرجل والمرأة .

ويعمل سداد مع الملك فى قصره كمساعد أو مستشار أو وزير .. وتنازعه نفسه بإغراء معارضي الملك بخيانته والانقلاب عليه ، فيحدث صديقه « رجاء » الفقير والذى يحيا مع أمه فى بؤس وشقاء ، يحدثه عن رغبته والهاجس الذى يختلج فى داخله ، فيكتب إليه معارضا هذه الرغبة ويذكره بالفرق بين الأمانة والخيانة . وتشاء الصدف أن يسرق قصر سداد ويكون من بين المسروقات رسالة « رجاء » المعارضة للخيانة ، فتصل هذه الرسالة بطريقة عجيبة إلى الملك ، حيث تلقفها أحد الضباط من صبى كان يبيع الحافظة التى تحويها فى أحد الشوارع . ويقوم الملك بالانتقام من « سداد » ويضعه فى الحبس الدائم . ويعين « رجاء » بدلا منه مستشارا أو مساعدا أو وزيرا . ونعلم من خلال الرسائل التى تبوذلت قبل تولى « رجاء » منصبه الجديد وقبل حبس « سداد » . أنه توجد فى قصر الملك فتاة جميلة هى « إبريسم » ابنة الملك .. ومن ثم نجد الأحداث تدفع « رجاء وإبريسم » حين يلتقيان أن يتعلقا ببعضهما تعلقا عنيفا وعفيفا أيضا ، ويتبادلا أشواقا محاصرة بالخوف والرجاء . ويتضح لنا أن هذا الحب قائم على دعامتين أولاهما : إعجاب « إبريسم » بأمانة « رجاء » وإخلاصه ، وثانيهما : التعاطف المتبادل بينهما .

وحين يتاح لهذا الحب النمو والازدهار يتدخل القدر ليحرمهما من التنعم بثمرة هذا الحب ، فيصدر قرار الملك بإبعاد « رجاء » إلى إحدى الجزر لإخضاعها وبث الأمن فى ربوعها . وينزل رجاء على رغبة الملك احتراما للواجب وإيثارا للضمير الوطنى ، ويفترق الحبيبان فراقا مرا ومؤثرا وعميقا ، ويودعان إلى حيث المجهول . وفى الجزيرة يحقق رجاء كل آمال الملك فى توطيد

الملك وثبوت دعائم الحكم ، بيد أنه يهزه الشوق ليلة ما للانطلاق فيسيح على وجهه راكبا فرسه ، وينقطع به الطريق فيضل تائها وينتظر الموت القريب الذى أصبح محققا فى ذلك المكان المقفر . وفى خلال محنته هذه تنجده الأقدار فجأة بفتاة تبحث عن أخيها الذى يشترك فى حراسة الشواطئ ، فتحمله على فرسها ، ثم يصحبان بعضهما كل على فرسه حيث يفترقان عند القصر . وتبدأ من ثم قصة أخرى حيث يتعلق قلب « رجاء » بقلب هذه الفتاة التى تعمل ممثلة فى أحد الملاعب بالجزيرة . ولكن رسائل « إبريسم » والتذكارات القديمة تحيى فيه الحب الأول وتجعله يقطع صلته بـ « كاميليا » الممثلة الفاتنة ، وعندما يؤذن له بالعودة إلى عاصمة المملكة يركب السفينة جزلا فرحا بلقاء الحبيبة الغالية ، وتنتظر هى عودة الحبيب الغالى ، ولكن الحظ العاثر والقدر العاتى والزمان المتربص يأبون عليهما أن ينعما بالحب ويجنيا ثماره ، فتهب عاصفة تغرق السفينة بالقرب من الميناء ، وينتشلون الغرقى ومن بينهم « رجاء » الذى بقى حيا حتى خرج من الماء ونظر نظرة فى وجه الحاضرين استقرت أخيرا على « إبريسم » ثم شهق شهقة انطبقت بعدها الأجفان وصعدت روحه إلى بارئها ، وتنتهى قصة حب فريدة بمأساة حزينة دامية .

٣ — والحق أننى وقفت إزاء هذه القصة مندهشا تعرونى هزة التلقى لشىء يحمل خصائص البكارة الأصلية والأصالة المبكرة .. فقد شعرت معها أن هذا العمل الأدبى يشدنى بعنف وقوة إلى المتابعة والاستطلاع بعكس الأعمال الأدبية التى نعرفها لكثير من أدبائنا فى مطالع حياتهم ، وبالرغم من أن هناك عيوبا فنية فى هذه القصة الطويلة ، إلا أنها تحمل فى أعماقها فكرا ناضجا وأسلوبا مشرقا واختلاجا بالأمل ينبعث من معاناة الواقع المرير .

وهذه القصة تحمل فى طياتها صورة ناضجة للعصر الأدبى وللمزاج الفنى

الذى كان سائدا وقتئذ فى تلك الفترة من الزمان التى شهدت مخاض الثورة الاجتماعية والسياسية ، كانت البلاد تتفاوض مع الإنجليز حول الاستقلال وتضج بالثورة ، وتتفجر طاقات الشباب المصرى احتجاجا على معاهدة ١٩٣٦ تطلعا إلى الخلاص ، وسيرا فى طريق الحياة الإنسانية بلا وصاية ولا أوصياء ، وكان الكاتب يكتب روايته هذه أيضا .

وكأنى بمحمد عبد الحليم عبد الله جزءا لا يتجزأ من واقع هذا الشباب المتفجر والذى تمتلئ نفسه بأحاسيس شتى تجاه نفسه وربه ومجتمعه ، فيعى هذه الأحاسيس ويحملها داخل وجدانه ويحللها بفكره ، ويحيا مع التأمل الطويل بنظر بعيد وفكر ثاقب .

ومحمد عبد الحليم عبد الله فلاح من مصر ، يحمل على كتفيه هموم القرية وآلامها ، ويحمل فى أعماقه روحها وأحلامها ، وكلها بماضيها وحاضرها ومستقبلها تسكن قلبه ولا تبرحه ولا يبرحها لأنها بعض منه وهو جزء منها .. كيان واحد لا يموت مهما تغير الزمان . فما بالك ومحمد عبد الحليم عبد الله يكتب « إبريسم » وهو فى أول عهده بالمدينة ؟

ومن ثم أرانى أقول إن « إبريسم » تدين فى تركيبها وإطارها للروح الشعبية المصرية ، وما ينشر عنها فى القرى بألسنة المداحين وشعراء الربابة والمغنين ، وهو خليط من « ألف ليلة وليلة » و « سيف بن ذى يزن » و « الأميرة ذات الهمة » و « أيوب » و « ياسين وبهية »... إلخ .

وأغلب هذه القصص يدور فى دنيا الملوك وداخل قصورهم وبين أبنائهم وبناتهم ووزرائهم وكل من ينتمى إلى هذه الدنيا ، مع وجود رمز شبه دائم لواحد من الفقراء أو البسطاء أو أبناء البلد على العموم .

وقد تحقق فى « إبريسم » وجود « رجاء » ممثلا لهذا الشعب وواحدا من

أبنائه الخلّص إلى جوار الملك ، وهو بجواره رمز للوفاء والمروءة والإخلاص .

وأظن أن محمد عبد الحليم قد ترسبت فى أعماقه ملامح الروح الشعبية كأى قروى عاش فى ريف مصر وتشبع بهذا الريف قلبا وقالبا . وأنطلق فى هذا القول من واقع شخصى مررت به وما زلت أحياه حتى النخاع . ولا إدخاله قد جانب الحقيقة والصدق حين يتأثر بهذه الروح فتسقط ظلها على أول عمل فنى له يحجبه عن الناس ولا يذيعه عليه .

وقد شهدت فترة البداية أو المخاض الأدبى لعبد الحليم ازدهارا لا مثيل له فى المذاهب الأدبية والتيارات الفكرية المختلفة ، وقد شاع مذهب الرومانسية فى مصر شيوعا كبيرا خاصة لدى الشعراء ، وهو مذهب له قيمته الفنية والموضوعية بالنسبة للظروف التى نشأ فيها ، فقد قام على أنقاض الكلاسيكية فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وحطم قواعدها الصارمة وتجاوز عطاءها المتحفظ ، وانطلق يحلق فى آفاق العاطفة الإنسانية بلا حدود . ولا ريب أن محمد عبد الحليم عبد الله قد تأثر بهذا المذهب تأثرا كبيرا لا يمكن إنكاره . بيد أنه استطاع أن يستوعب ملامحه استيعابا صحيحا وليس خاطئا كما كان يحدث لمعظم الأدباء فى مصر ، الذين ظنوا أن الرومانسية تعنى الحديث عن قضايا الحب والغرام والوحدة والكآبة فقط ولا شىء أكثر من هذا . بينما الحقيقة تخالف ذلك وتعنى الثورة على الجمود والقهر والطغيان والركاكة والتقليد . وأعتقد أن عبد الحليم فهمها على هذا النحو القريب إلى الصواب ، ومن ثم جاءت قصة حبه عفيفة وغير مبتذلة ، ويشرق خلالها الأمل فى أحلك ساعات الظلام رغم الإحباط الواقف بالمرصاد فى حياة الأبطال .

وفى تلك الفترة كان للأستاذ أحمد حسن الزيات — صاحب الرسالة — الفضل الأكبر فى إتاحة الفرصة لنشر هذا المذهب والترويج له . فقد أعطى من

صدر « الرسالة » متسعا لكل الشبان الأدباء الذين يتطلعون للحرية والتعبير الثائر ، ونشر آنئذ ترجمته الرائعة «لآلام فرتر » النموذج الحى لما كتبه واحد من زعماء الرومانسية فى الغرب وهو الشاعر الألمانى « جيتة » . وكان الزيات فى ترجمته بالإضافة إلى ما كتبه من مقالات وما أخرجه من كتب رمزا للأسلوب الجيد والإحساس الفياض والوجدان المتحفز ، مما دفع معظم الناشئة إلى تقليده واحتذائه .. وأعتقد أن عبد الحليم قد تأثر بذلك إلى حد ما ، وسنوضح ذلك فيما بعد .

بيد أن هذه الرومانسية التى أضفت ظلالها على «إبريسم » لم تكن خالصة تماما ، فقد شاركتها رمزية شفافة وجذور واقعية رفيعة جدا ، وهو ما يجعل القصة أكثر انتماء للظروف الاجتماعية السائدة وقتئذ . يؤكد ذلك موضوع الصراع بين العاطفة والواجب ، وتغلب الواجب على العاطفة فى معظم المواقف الحساسة ، وهو ما يحتمه الكلاسيكيون وينطلقون منه بادئ ذى بدء كما فى أعمال راسين وكورنى .

٤ ــ قد يتخيل البعض أن « إبريسم » تتحدث عن قصة حب عاطفية ــ منفلوطية ــ نسبة إلى المنفلوطى تثير الدموع والأشجان ليس إلا ! والحقيقة أننا لو تتبعنا ما جاء فيها فسوف ندرك أن الكاتب الموهوب اختار لموضوعه الحساس جدا ، وأعنى به ــ الحكم ــ إطارا يحقق له عنصر التشويق وانتباه القارئ طوال الوقت وانجذابه إلى كل حرف من القصة .

إن الملك فى القصة له معارضون وله مؤيدون ، وبين هؤلاء وأولاء مترددون من بينهم « سداد » صديق « رجاء » الذى تحدثه نفسه بالخيانة بعد أن عاش فى رغد من العيش والرفاهية . بيد أن الإغراء يزين له أن الانقلاب على الملك سوف يحقق له كثيرا من هذا الرغد وتلك الرفاهية . ولكن رجاء لا يعجبه ذلك لأنه

يدين بالولاء للملك ما دام هو مخلصا للشعب ومحققا لأمانيه — وهو رأى صريح فى موضوع الملك — ويرى أن من واجب المساعد للملك أن يخلص ويجد ولا يخون ولا يحقق مآربه الذاتية ، وهو رأى صريح فى الحكام وحواشى الملوك . وحين يدوس « رجاء » على قلبه وعاطفته وحبه « إبريسم » ويذهب بعيدا إلى الجزيرة المعزولة ليحقق واجبا وطنيا مقدسا وهو الاستقرار والازدهار ، فإنه لا ينسى أن يوفى لصاحبه « سداد » الذى أضناه الألم والكرب فى سجنه حتى صار حطاما وأثرا من كيان بال . يزوره « رجاء » ويسعى لإطلاق سراحه ، ولكنه حين يرى إصرار « سداد » على الخطأ يتراجع ويتركه يلقى مصيره كمدا .. ويبقى على وفائه وحبه له فيدفنه ويبكى بجوار قبره ويضع عليه الزهور .

وعندما يميل القلب إلى « كاميليا » يشده التذكار إلى « إبريسم » الحب الحقيقى والصادق ، فيستغفر ويعود إلى أحضان الحقيقة نادما ومعترفا بما كان .

إن « رجاء » إنسان مثالى فعلا ، ولكنه معرض للخطأ — سنة البشر وطبيعة الآدميين — ويعتبر « رجاء » رمزا للعقل والاتزان والحكمة وأكاد أقول إنه عصارة لهموم الكاتب فى مطلع حياته وصباه .. « فما شربنا الكأس صافية قدر ما شربناها ممزوجة ، ولا رأينا السعادة حاضرة قدر ما رأيناها مفقودة » وفى موضوع آخر يقول : « فإن الزمان استوعبنا إساءة » والخطأ الذى يتعرض له البطل غالبا ما يكون خارجا عن إرادته أو هو خطأ الغير فيه دون أن يخطئ هو فى حقهم .

و « رجاء » يحب الوطن ويحس بالغربة مرة وحارقة حين يبتعد عنه ، ولذا فإنه يصف ذاته عندما عاد إلى هذا الوطن بعد غربة طويلة فلاقى احتفاء الأهل والأحباب « لذت له حياة الوطن وإن كانت تنغصها عليه الذكريات وتفترسه يد الدهر المقبوضة . ولكنه تمتع بالقليل حتى يأتيه الكثير ، ولم تمتد عيناه إلى ما تقصر

عنه يداه ، وعاش وأهله من حوله عيشة لا يرضاها إلا الزاهدون المبتلون ، وما راعه بلى الدار وامحّاؤها غداة دخولها ، فهو ابن الزمان البار الذى يحفظ له الإحسان إن أحسن ويغفر له السوء إذا أساء » .

أليس رجاء بطلا مثاليا حتى فى حبه لوطنه ، وإن كانت المرارة تسقط من كل حرف يقوله ؟ يقول فى خواطره : « ليل كالبحر وسفينتى فيه وحيدة تتكسر وأنا ربانها » .

وتلح على رجاء من خلال انثيال الفكر عوالم الروح والطهارة والنقاء والسلام .. و « رجاء » مدين بكل هذا للكاتب الذى نشأ نشأة طيبة طاهرة عمادها القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ .

و « رجاء » ينظر إلى الأشياء نظرة موضوعية لا تطغى عليها العاطفة إلى حيث يكره ، بل يسير بالعقل المنظم والواعى ، ولعل فى الخطاب التالى شاهدا على ما نقول :

« ماذا دهاك يا « سداد » وماذا أصابك .

أمن غلطة واحدة تقلب لوليك ظهر المجن ، وتعلن عليه حربك وجهادك غير ذاكر عهدا ولا حافظا ميثاقا ؟ أمن غلطة واحدة تفعل كل هذا — إن صح أن تعد جيطة الملك لنفسه غلطة ؟ لا يا صديقى ليس هذا من الشرف فى شيء ، إن جنين الخيانة الذى يتكون فى نفسك سيكون من قاتليك إن آن له أن يتم تكوينه ، فاقض عليه أنت قبل أن يقضى عليك ولا تشحذ السكين لنفسك بنفسك ، فإن هذا كثير على دابة بلهاء » .

تأمل تصوير الخيانة فى عبارة الكاتب ، إنه تصوير فريد فى أدبنا العربى ورائع .

و « رجاء » يعلن عن معارضته للخيانة رأيه فى الملك والحكم أثناء مناجاته مع

حبيبته « إبريسم » :

« .. لو لم يكن العدل محور حكمكم ، والإخلاص لحمة عملكم ، ما أبقى الله شجرة الملك ناضرة الأوراق ناضجة الثمرة ولسلط عليها ريحا عاصفة تبعثر أوراقها وثمارها وتتركها عودا عاريا متكسرا ، لا ينفعه الطل ولا يجديه الحيا .. » .

وهو مع ذلك وطنى من طراز ممتاز « .. فى سبيلك أيها الوطن أنزل كأس الحتوف من على ثغرى ضاحك السن كما أنزل سقراط كأس السموم كذلك ، وسقراط مات شهيد العلم فلأمت أنا شهيد الوطن .. » .

أما فكره فى الحب فهو تفكير من لا يأمن إلى المرأة أو من يتشكك فى إخلاصها ووفائها ، وهو رأى يحتمل المناقشة وإن كان من الأفضل أن نورده هنا . فما هو : « .. ولأن المرأة قد تحب الرجل لفضيلة فيه ، وما أقل اللاتى يهوين الرجال من أجل الفضائل . إنك لا تجدهن إلا بين ذوات النفوس الجميلة التى تخلصت من أرجاس المادة ومفاسدها ... وقليل ماهن ، وقليل أن ينهار غرام مأتاه الفضيلة لأنها سبب خالد باق وليست بالعرض الزائل ولا الظل المتنقل ، فللمال آفة وللجمال مثلها ، والحديث كثيرا ما تعرض عنه الغوانى أو كثيرا ما يكون أثره سريع الزوال ، فعاطفة المرأة متحولة ليست تقر على قرار » وهو رأى مثالى تماما ، وحين يستمسك به المرء فإن مصاعب الحياة سوف تصبح أكثر تعقيدا وجفافا .

بيد أنه من خلال هذا الحب تستبين ملامح المقاومة لفواجع الزمان وضرباته « قل لضحايا الزمان هونوا عنكم فإننا شربنا مرارا على القذى ، ثم رقت مشاربنا » والطريف فى هذا الحب عند محمد عبد الحليم عبد الله أنه يقرب بين الطبقات ، وليس طبقيا بين أفراد الطبقة الواحدة كما يرى البعض .. وأسبابه فى

ذلك : « ... لأنى أعرف الحب مكانا يلتقى فيه الحبيبان إن اختلفت بهما الأماكن ، فهو معراج يعرج به الأدنى إلى الأعلى ، وهو مهواة يهوى بها الأعلى إلى الأدنى ، ولا يزالان فى طريقهما حتى يلتقيا فيستقرا ، وهنالك تستوى المنازل والمراتب .. » .

٥ — وفى هذه الرواية تبدو شخصية « رجاء » هى الشخصية الوحيدة التى تكاد تكتمل ملامحها الإنسانية ، بينما شخصيتا « سداد وإبريسم » غير واضحتين تماما ، أو بمعنى أصح فإن الكاتب لم يستبطن عالمهما الداخلى وركز على عطائه على « رجاء » الذى يكاد يترجم نفسية الكاتب الشخصية ، وأفكاره الإنسانية ، وآراءه الاجتماعية ، تجاه الأحداث والحياة .

ويخيل إلى أن الكاتب حاول أن يرسم شخوصه ويبنى هيكل روايته على نسق « آلام فرتر » التى ترجمها الزيات ، بيد أن هذه المحاولة لم تأخذ طابعا متكاملا ولم تحقق نجاحا كبيرا من ناحية تطور الشخصيات ، وإن كنت أرى أن الكاتب تفوق فى الأسلوب الذى سرد به أحداث روايته ، وهو أسلوب مشرق فيه قوة وجزالة وفيه من الشاعرية ما يمكن معها القول بأن الكاتب يحاول أن يقول شعرا خالصا ولا يسعفه الوقت ليجلس إلى موازينه وقوافيه ، فاكتفى بأن يترسل أحيانا ويسجع أحيانا أخرى ، ويأتى فى أحيان أخرى بالتعبير مزدوجا ، ولا أظنه كان غريبا على عصره فهو ابن بار له ومساير له ومتقدم عليه أيضا بما أعطاه للكلمات من تجديد ومعان دقيقة .. وقد كان صاحب الرسالة حينئذ يتربع على عرش الأسلوب فى مصر والعالم العربى ويكاد كلامه يكون شعرا إلا أن محمد عبد الحليم استطاع مع مرور الزمن أن ينطلق منسابا ومتخلصا من كل قيد يحد من حرية الكلمة والجملة .

وجاء أسلوبه فى الرواية مليئا بالاقتباسات والتضمينات ، مستعينا بأبيات من

الشعر العربى والأمثال ، ويظهر تأثره واضحا بالقرآن الكريم ، ويمكن للقارئ أن يلمح أمثال هذه الاقتباسات والتضمينات فيما يلى :

« وهكذا أصبح اليأس كالصريم » . « فإذا أنزلت على نفسك الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » « أصبح سداد فرأى القصر قاعا صفصفا » ، « وأنا ماذا عساى أن أعمل بك .. أنا أستطيع عذابك بما هو أشد من الموت وأفظع ، إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ». « وذكرت النعيم الذى تقاسمناه زمانا وكيف استحال إلى عذاب تتجافى منه الجنوب عن المضاجع » ، « الآن حق عليك العذاب ، فابك بكاء النساء ، لأنك لم تعرف طريق الرجال » وهكذا نجد كثيرا من مثل هذه التضمينات والاقتباسات من آيات القرآن وأبيات الشعر ، وهناك بيت من الشعر لا أدرى لماذا كان يلح عليه حتى ضمنه رسائله الخاصة إلى خلصائه :

« ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكنت أظنها لا تفرج »

أهو شيء يرجع إلى معاناته الخاصة تجاه الحياة والأحياء ؟ أرجح ذلك فقد احترق بلهيب الحياة ، ومع ذلك كان لديه فرجة من أمل وثغرة من نور رغم اليأس والعذاب .

وهناك بعض المفردات والتركيبات اللغوية التى استعملها الكاتب خلال روايته مثل : الصريم ـــ الرئام ـــ الأقيال وجماء الأصيل ـــ وغروب الغزالة ـــ وعدو مكاشح ـــ إلى غيرها من المفردات والتراكيب التى بات استعمالها غريبا ونادرا فى أدبنا المعاصر . وهى على كل حال تدل على مقدرة لغوية لا يملكها معظم الناشئين مع دنيا الأدب العربى المعاصر ، بل وكثير من الذين تخطوا مرحلة النشأة إلى مرحلة التمرس .

٦ — يبقى سؤال ، لماذا آثر الكاتب أن يحفظ هذه الرواية بين زوايا مكتبه محجوبة عن الناس حتى ودع العالم أجمع ؟ إنصافا للحقيقة فإنى لم أجد جوابا شافيا حتى لدى المقربين إليه ، وإن كنت أعرف شيئا عن ظروف مخاضها وكتابتها . ويبدو أن رهبة اللقاء بالعالم القارئ آنئذ جعلته ينأى بها بعيدا حتى لا يضار فى صباه بالنقد القاسي أو الإعجاب الشديد ، وقد كان رحمه الله حساسا تجاه نتاجه ، وقد قلت فى البداية إنه كان يرفض طبع الكتاب الذى لا يعجبه مرة ثانية أبدا .

ولعله كان يخشى أن تشف هذه الرواية عن عواطفه ونوازع وجدانه ، فإن كلمة « الحب » آنئذ كانت غير مقبولة على نطاق واسع ، أو هى كلمة محاصرة وتعنى دائما التساؤل ، رغم أن رجلا مثل المنفلوطى كان سابقا إلى الحديث عن الحب وترجم بعض قصصه مثل « بول وفرجينى » .

إلا أن رهبة اللقاء مع الجماهير وبداية النتاج والإثمار دائما رهيبة ، وأرجح أن هذا هو المبرر القوى الذى جعله يحتفظ بإبريسم فى مكتبه بعيدا عن الناس حتى توفاه الله .

ونحمد الله أن الناس ستراها وتطلع على ملامح البداية لكاتب أصيل ، أثرى وجدان الشبيبة فى مصر والعالم العربى بأروع القيم وأفضل المثل الإنسانية .

(حلمى القاعود)

من رجاء إلى سداد

كتابى إليك وأنا فى طريقى إلى الوطن ، وغدا أستقر فيه وتصبح بينى وبينك بلاد ، ودونى ودونك بحار عليها قلاع شيدتها الليالى فأحكمتها ، ودججتها بالنبال وكللتها ، وعيون بثها الدهر فقعدت لنا كل مرصد ، فما شربنا الكأس صافية قدر ما شربناها ممزوجة ، ولا رأينا السعادة حاضرة قدر ما رأيناها مفقودة .

فما هذا النضال المتوال ؟ إنه لكثير على صديقين ما جنيا من الدهر جناية ، ولا استحلا برىء دمه ، ولا فرقا بينه وبين من هواه فيه .

إنى لأذكرك يا سداد وأذكر أياما قضيناها فى ربوع رأيناها فأحببناها ، لأنا وجدنا فيها قلوبا عطوفا تخفق فى صدور غير صدور الأقرباء ، ونفوسا شريفة طهرتها قطرات الشفقة التى يسحها خالص الإيمان .

كم لهذه المنازل منازل فى فؤادى ، وكم أسرنى جمالها المضروب على أنحائها ضرب الدجاجة بجناحها على أفراخها ، ولذت لى سماؤها لصفائها كما تصفو المرايا بعد صقلها وجلائها ، وحلت فى عينى مياهها بعيونها كما تحلو الكئوس لسقاتها وهواتها ، فلئن فارقتها فما على كره ولا اجتواء ، ولكن كما يفارق الطير وكرا حلا له فيه المقام نازعا إلى وكر وطنه الذى خرج منه .

شأننا اليوم غير شأننا بالأمس .. شأن الأمس موعد فلقاء واجتماع ، وشأن

اليوم وداع فاغتراب . فشتان بين اليوم والأمس وشتان بين شأنيهما ، فاكتب إلى بكل ما يحيط بك وما يمازج نفسك لأعرف ما حال الديار وما بها ، وهل أصابتها سهام الزمان ؟ وحال الأحبة هل دارت عليهم الدوائر فلم ينتفعوا بالعيش من بعدى كما هي حالى ؟ وإن فؤادى ليراودنى أن يترك جنبات صدرى فقد أعلنت له العصيان !

من سداد إلى رجاء

أقمت ثلاثة أيام فى منزلنا الذى بين جدرانه رافقتنا السعادة ، ثم نزحت بنزوحك وعزبت بعزوبك .

أقمت فيه ثلاثة أيام لاقيت فيها من نزعات النفس وخلجاتها ما حملنى على الرحيل ، فارتحلت وأنا بذلك جدير .

صديقان عزيزان تركانى وتركا لى من ذكريات ما يبلبل الخاطر كلما هدأ ، ويوقظ الهم كلما وسن ، فكيف لا أترك ما فيه عذابى وقد تركنى ما فيه نعيمى ؟ لذا باينت المنزل بعد أن بان العزيزان .. بنت أنت وبانت السعادة .

أما المنزل الجديد فلا جميل فيه إلا هدوؤه وسكونه . وشرفته المطلة من بعيد على شارع عريض ، وقربه من مواطن ذكرياتك التى أتعهدها بالزيارة كلما ذبلت نفسى أو ضاق صدرى ، أتداوى بها والداء فى دوائى . وأستشفى بها ويا ليتها شفائى .

كنت جالسا فى الشرفة لأنفض الهموم عنى نفضا ، فراعنى صدح بلابل

الموسيقى ورقص القلوب على نغمتها ورقص الجسوم فى نشوتها ، وسمعت الصوت يعلو قليلا قليلا حتى بلغ أشده ، فإذا الجنود فى الزرد كالأسود فى اللبد ، تحفها عدتها من كل جانب كأنما الحرب قاب قوسين ، وإذا الخيول الصواهل تسير مبطئة متحفزة مفرجة صدورها ، مقوسة رقابها ، تلاقى لجسمها من أفواهها ما تلاقيه الأرض من سنابكها ، وإذا العجاج سرادق مضروب ، والأسنة فيه ثريات موقدة ترى فى ضيائها الوجوه مشرقة ، والأفواه باسمة .

رأيت هذا فذكرت أن اليوم يوم جلوس الأمير الوارث على العرش الخالى ، وأن هذا المهرجان إنما هو للاحتفال بجلوسه . فوضعت يدى على جبينى لتكون له متكئا ، وأرسلت بصرى إلى هذه المدينة المتنقلة حتى انتهى الحفل وسكن ضجيج الشوارع ، وهدأت جعجعة المراكب وسرى السكون فى أحشاء المدينة ، فترك عقلى كل شيء وانصرف إلى الملك الجديد ففكرت فى مجده وجلال قدره وشموخ قصره ، وفى البلاط من حوله والخدم رهن أمره ، وفى صحاف الذهب يطوف به الخدم على جموع المهنئين كما يطوف الولدان المخلدون على الشهداء والصالحين ، وفى الجمال الذى كسا القصر من فرعه إلى قدمه ، والنعيم الذى غمر ساكنيه من ربه إلى خدمه ، ذكرت هذا فقلت يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما .

هذا ما صبت إليه نفسى يا رجاء فى هذه الساعة وما نيله على الله بعزيز ، لأن أبى كان من معلمى الأمير ومربيه أيام صباه ، وبقى معه حتى بلغ أشده ، وكان الأمير يحبه ويجله وينزله المنزلة التى لا يعلوها سوى الآباء .

ولقد وعده بأن أكون فى بلاطه يوم استوائه على العرش ، وها هى ذى دوحة آماله قد أورقت فلعلها تفىء على نبتة أحلامى حتى لا تغلبها عصفة الريح أو تحرقها لفحة الشقاء . لئن تحقق هذا يا صفيى لأمسحن بيدى دموعك التى نضجت منها خدودك ، ولاستطعت أنت الآخر أن تكون فى جماعة البلاط ، واستطعت أنا أن أفى بعهد تحالفنا فيه على الزمان ، وإن قلوبا ربطها رباط المحبة لن تستطيع تفريقها الأيام .

من سداد إلى رجاء

الملك كبير تحمله ساريات العظمة وتحرسه أشبال الجلال ، والقصر عرين هادئ الأسد تترنح أغصان أشجاره وتغرد أطيار أغصانه ، والبلاط فى جد ونشاط وإخلاص لمليكه ورب نعمته . ويسرك اليوم أنى شجرة فى هذه الخميلة وغدا أفىء عليك مما أفاء الله على ، وليس بينك وبين هذا إلا كما بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها . وغدا سيضم جسمينا بيت واحد ، كما تتردد فى جسمينا روح واحدة . وإن السعادة بانتظارك ، وغدا ترحل إليها وتأتيها لتهنأ بظبية شاردة طالما فتنتنا وهجرتنا ، وفرت منا من ربوة إلى ربوة ، ومن روضة إلى روضة ، حتى دخلت كناسها بين البان والعلم . فوقفنا ساعة حائرين ، ثم افترقنا على أن نجتمع وقت ظهورها ، ولقد ظهرت فصيدت ، وأصبحت فى بطن قفصى جنينا ما لنهاية حمله ميعاد .

الملك يحبنى كثيرا .. يحب الولد على محبة الوالد ، ويرى أن الشجرة جديرة

بالحظوة والاصطفاء ، فأنا عنده ريحانة القصر بعد أميرته ووارثة عرشه « إبرَيسَم » وأنا يمينه التى يصول بها على منافسيه ، ومرآته التى يرى خيال أبهته فيها .

أما « إبريسم » فلا أحدثك عنها أكثر من أن أقول :

إنها فتاة جميلة عالية النفس لم يغرها العرش ولا الملك وهما فتنة القلوب ومسرح الأهواء ، ليست كثيرة التعلق بأساليب اللهو ولا التفنن فى المجون ، بل قلما أراها واقفة فى شرفتها أو سائرة فى حديقتها أو مداعبة جوادها ، أو جانية ورودها .

فهذه الحياة بزينتها وقصورها ، وهذه القصور بأبراجها و عراصها ، وتلك العراص بحجراتها وجناتها ، وتلك الجنان بأفيائها وأشجارها ، والأشجار بأزهارها وأثمارها ، كل هذا لا قيمة له فى نظرها ، ولا منزل له فى فؤادها ، فأعجب لفتاة تملس من النعيم إملاسا وتوصد فى وجهه باب قلبها ، فلا يملك عليها سمعا ولا بصرا .

إنى على عهدك مقيم ، فكن مقيما على عهدى واكتب إلى بحالك وشأن أهلك ووطنك ، ولا تدعنى فريسة فى يد الهواجس ، فلست أقوى على رد وثبتها ، ولست أقوى على أظفارها وأنيابها .

الوبـــاء

نزل رجاء أرض وطنه بعد غربته الطويلة ، فلاقى من احتفاء الأهل والأصحاب ما يلاقيه الطير من صغار فراخه عند عودته إلى وكره ، ولذت له حياة الوطن وإن كانت تنغصها عليه الذكريات وتفترسه يد الدهر المقبوضة ، ولكنه قنع بالقليل حتى يأتيه الكثير ، ولم تمتد عيناه إلى ما تقصر عنه يداه ، وعاش وأهله من حوله عيشة لا يرضاها إلا الزاهدون والمتبتلون ، وما راعه بلى الدار وامحاؤها غداة دخولها ، فهو ابن الزمان البار الذى يحفظ له الإحسان إن أحسن ، ويغفر له السوء إذا أساء .

ظل البائس يترقب رسائل صديقه حتى جاءته رسالته الأولى فكانت ثغرة فى جدار اليأس تضيء وتنير ، وتقتحمها السعادة ويتدفق منها برد الأمل . فكلما هاجه الشوق أو شفه الوجد تأملها ثم استعادها،وتلاها كأنه يريد أن يشرك فيها كل جوارحه ، وكأن فى كل حرف من حروفها سعادة كامنة ، وقيثارة ناغمة .

وهكذا أصبح اليأس كالصريم ، ووقف على الجسر بين السعادة والشقاء . وقف عليه وما كادت تستقر قدمه حتى زلت فهوى تحته وهو جريح صريع ، يلاقى آلاما عظاما ويشرب أهوالا جساما .

نادى فى دياره مناد جديد سخره الدهر .. نادى منادى الوباء فأتى على الأخضر واليابس ، والبوم والغربان من ورائه تقيم المناجاة فى البيوت الخاربة ،

وتنعى أصحابها ومفارقيها ، وتتبع جنائزهم حتى المقابر .. ثم تعود إلى البيوت جماعات وأسرابا لتبكيها بالنعق والنعيب ، كما يبكى على طلل الحبيب الحبيب .

أصاب الوباء أخا رجاء فأطفأ مصباح حياته وهو فى أول زيته ، وأخفى شقيقا لم تبلغ حنانه الأشقاء ، وخليلا بات يحميه من صولة الدهر بسيفه ورمحه ، فلما جاءته المنون شمت الدهر فيه كثيرا ، وتنكر لشقيقه بعد ما تركه الحارس اليقظ الذى ما غفل له جفن ولا هدأ له جنب .

تنكر الدهر فأصاب الأب بما أصاب به الأخ ، وترك المسكين هو ووالدته الشمطاء فى المنزل يعالجان من ألم النفس وألم المصيبة مثل ما يعالجه الطريح تحت أسنة الرماح ، من وجع الذكرى ووجع الجراح .

أفاق رجاء من غشيته بعد أيام فرأى الدنيا متبدلة من حوله ، ورأى المدينة خرابا يبابا لا يعمرها إلا جماعات الطير غادية ورائحة ، وأصوات الغربان تتجاوب بها نوافذ الجدران .

وكأن المدينة لبست لباس الحداد على مودعيها فصمتت صموتا لا يشقه إلا عصف الرياح الضاربة التى تؤلم الديار فيئن عند عصفها أنينا ، ورأى الذين أخطأهم الوباء حاملين أمتعتهم تاركين الديار تجوس فى جنباتها أفاعى الخراب ، فنزح معهم حاملا أمه على دابة مستأجرة بعد أن كتب إلى صديقه فى البلاط يخبره بالنكبة . ويعرفه المستقر الجديد فى مدينة على بعد عشرين مرحلة من الأولى .. حط المسافر رحاله واكترى غرفة فى حى من الأحياء الجميلة ، سكن فيها هو وأمه راضيين بالكفاف من العيش ما داما يريان فى

حجرتهما الجمال .

حجـرة هادئة عالية عليلة الهواء واسعة النوافذ ، لها أشعة الشمس عند البزوغ وعند الغروب . تطل على نهر ترتع فيه القـوارب وتسبـح فيـه المراكب ، وعلى ضفتيه أشجار الكافور العالية التى لا تفارق ظلالها صفحة الماء ، ما لم تفارق الشمس صفحة السماء ، ولا تفارق أغصانها البلابل تستقبل الغزالة بالغناء وتودعها بالغناء .

فمن رأى تلك الحجرة ظن أن بانيها إنما بناها لبائس لم يقو أحد على مسح بؤسه عن قلبه ، فبناها وشيدها لتكون هذه بلسم الشفاء .

سكنت نفس الولد ونضرت صحة الأم فى هذا المكان ، وحلت رسائل سداد فى المحل الأول من نفس رجاء بعد أن عفت حزنه الأيام . فأخذ يترقبها بصبر نافد ويفكر فيما عساه أن يعمل إذا ما انهار هذا الأمل ، وماذا يكون شأنه وشأن أمه وقد أشرف ينبوع المال على النضوب ؟ ثم يعود إلى نفسه ويقول : ما أظن أن الله سيقضى فى أمرى بهذا القضاء القاسى الشديد ، وإن قضى فما أظنه إلا قضاء ممقوتا ينسخه قضاء آخر تهدأ له النفس ويرتاح له الفؤاد .

من سداد إلى رجاء

لا أظن يا سيدى أن وقع النكبة على قلبك أشد من وقع الخطاب على فؤادى، وما أظن أنك ترجو تعزيتى ولا مواساتى فما أنت إلا ناع إلىّ المصاب ، وأنا الذى أستحق منك العزاء .

مات أبوك وهو أبى ، وولى أخوك وهو أخى ، فإن عزيتنى فكما تعزى نفسك . وإن عزيتك فكما أعزى نفسى .

الصبر مر والجزع مر ، إلا أن كأس الصبر لا تضر وكأس الجزع تضر . فلنؤثر الصبر على الجزع ، ولنختر كأسا فيها الشفاء تاركين أخرى بها الداء العياء .

من سداد إلى رجاء

يؤسفنى أن أتولى هدم صرح شِيْدت بالأمس بنيانه ، وأن أخبرك بما يحزنك وإن لم يكن لى فى ذلك يد ولا مراد ، ولكن ما كنت أخشاه قد وقع ، وليس يجديك الفرار من أذى كنت منه تحير .

فلئن كتبت إليك فإنما أكتب بيراع ممزوج بالضجر مداده ، ومشابه لسواد الحياة سواده ، يحركه بنان براه الزمان فلا يستطيع الحركة إلا كما يستطيعها فؤاد المدمن . وإن شئت فقل القلم يحرك يدى أكثر مما تحركه هى ، والصرير يزعجنى

ويثير أعصابى كأنى أمام قيثارة المحزون .

جلست إلى الملك ولم يكن معنا ثالث فعرضت عليه أمرك ، فقال لى :

— أنت تعلم يا سداد أنى لم أتول الملك إلا بجهاد أسرة هى من أقوى الأسر ، وتعلم أنها لا تحبنى ولا تحب عرشا جلست عليه وستجلس عليه أميرتى من بعدى ، أوَليس من الحزم والحكمة حيال هذا ألا يدخل قصرى جديد لآمن شر المتجسسين وغائلة الخائنين ، وإنى لعليم برجال قصرى وخبير بوفائهم وإخلاصهم ، وأخشى أن يفسدهم علىّ مفسد زينت له الأعداء الحياة .

فقلت له بعد أن أتم حديثه :

— يا صاحب العرش ألم تعرف فىَّ الإخلاص لك ؟

فقال :

— عرفت فيك الإخلاص كله .

فقلت :

— إذن ينبغى أن تقبل الجديد ما دمت أنا به زعيم .

فأجابنى :

— لو دخل قصرى من لم يرض عنه قلبى لأسلمت عرشى إلى السوس آكلة القوائم ، ولأصبح كرسى البلاد أهون من كرسى الحديقة . ومتى هان العرش هان كذلك الملك ، وإن هان الملك هانت الرعية ، وهذا ما لا أحبه ولا يحب مخلص لى أن تدور به الأيام .

هنا تذكرتك يا رجاء، وذكرت أن السعادة التى كنا نرجوها إنما هى سعادة

موهومة، أو حلم من الأحلام اللذيذة انقشعت لذته وولت غمامته. فإذا حزنا عليها فما الحزن بنافعنا ولا مجدينا، وإنما النافع الصبر حتى تهب رياح ترجع الغيامة الماطرة، فإذا أنزلت على نفسك الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

خواطر رجاء

نزل الكتاب عليّ بهم ملأ الفؤاد وأضاع الرشاد.. كل شيء من حوله فألبسه ثوب الحداد.

وبقى فى سكرته تلك حتى أظله الليل، فآوى إلى مخدعه فلم يعرف إلى النوم سبيلا، فترك السرير بفراشه، وقام إلى نافذة غرفته حيث أشرف منها على العالم فى هجعته، والكون فى سكنته.

فراق له مرأى الأشجار فى الظلام، والماء تحتها ينساب فى النهر بهدوء كأنما خلع الليل عليه سكونه، رأى ذلك فاضطرمت العاطفة فى قلبه، واعتلجت الفاجعة فى أحشائه، فتحرك من هذه الثورة لسانه فقال:

الناس فى ليل وأنا فى ليلين، فلى من بعد ليلهم ليل من همومى وآلامى. الناس فى ليل إن كان مظلما فهو هادئ وجميل، وإن كان رهيبل فهم فى أحضان أهلهم وذويهم آمنون، وبنشوات كراهم وأحلامهم مستلذون، أما أنا فليلى كالبحر هياجا وظلاما ورهبة. ليلى كالبحر وسفينتى فيه وحيدة متكسرة وأنا ربانها. أنا ربانها ولكنى جاهل بالمسالك، والظلام حالك، فأين شاطئك يأيها الليل؟ وأين مضجعك يأيتها الثريا لتأوى إليه؟ ألم ينل منك التعب ويضنك السهر،

والسهر داء عياء ؟ أنت يا فراشي وثير ، وأنت يا هواء عليل ، وأنت يا ليل ساكن تحبب الزيارة إلى كل طيف ، فما بالك لا تحببها إلى طيف المنام ؟ طيف المنام أنّى لى به ؟ وسهم السهاد واقف بالمرصاد ، واقف له حيال مضجعى يذوده عنى ذيادا ، فيا له من حارس ثقيل يدفع عنى العدو والحبيب ، ويا له من طبيب جهول يمسح عنى بلسم الشفاء . **« يسمع على أشجار الكافور حمامة تهدل »** .

أيتها الحمامة ماذا دهاك ؟ أسهاد كسهادى ، وعذاب كعذابى ؟ أم هديل السرور ولحن الطرب ؟

يا ليت شعــــرى يا حما م شج فؤادك أم خلى ؟

وحليـف سهــد أم تنــا م الليـل حتـى ينـــجلى ؟

رددى رددى ، فغناؤك أو بكاؤك يسرى عن النفس ويخفف عن الروح . رددى .. علّ طائر الكرى يسمع هديلك فيهادِلُك ، ثم يأتى ويحلق فوق جفنى .

رددى فإنى لا أجد ريحه ، فهو كالظبى الشارد يفر منى وأنا أتبعه . **« ينظر إلى جسمه فيحزنه نحوله وتسكت بعد قليل الحمامة »** .

أيها الجسم لقد هزلتك الهموم . فأنت كالطلل الدارس ، والقلب فيك الغراب الناعق .. لا ، لا ، ليس فى القلب قوة كقوة الغراب ، بل هو كالغراب الذى أضناه النعيب على هذا الطلل ، فآوى إلى جحرين هما جانحتاى وكمن بينهما ، وأخذ يبكى بكاء خافتا ، ذلك البكاء هو الوجيب الذى لا يكاد يدرك .

لقد سكتت الحمامة التى كانت تعلم حالى .. لقد سكتت ، فلم يبق لى مؤنس فى وحدتى إلا أنينى وزفراتى .. فيارب ، لقد حرمتنى المنام ، فلا تحرمنى ما يعزينى عن المنام .

« فى هذه اللحظة .. بين غياهب الهموم ، وفى تلك الوحدة بين مخالب الغموم ، أطل عليه القمر وبان على الأفق فاستمر فى مناجاته » .

شكرا شكرا ، شكرا لله وجلاله .. هذا هو القمر خير أنيس وجليس . لقد جاء يعودنى فى أرقى كأنه لم يهنأ له المنام !! جاء إلى بوجه خجول ضرجته الحمرة حمرة الحياء .

انفضها عنك أيها القمر ، والبس لباسك الأبيض الناصع ، وأنر الكون يا رسول الهدى فى الظلام .. أنر الكون وقف فى صفحة السماء ولا تهجرنى كما هجرنى المنام ، قف فى صفحة السماء فإن لى فيك عنه عزاء وسلوة .

أنت أيها القمر السابح ، أأنت فى عالم الأرواح ؟ أأنت فى عالم الطهارة والنقاء ؟ إن كنت هناك فأقرئه منى السلام فهو عالم الراحة ، وانظر هل هناك مكان لى ؟ فإنى أريد أن أكون هناك لأهجر التعب إلى الراحة .

أريد أن أكون هناك ، ولكن أنّى لى بهذا المكان وأنا فى الأرض وهو فى السماء ؟

بقى رجاء فى مثل حديثه هذا ، حتى رأى القمر يسترجع أشعته قليلا قليلا ليخلى السماء لأشعة أمه وواهبته الضياء ، وحتى سمع رنة مؤذن الفجر ، فأحس الراحة تتمشى فى جسمه كأنها دبيب نمال فى نقى يتهيل ، فعاد إلى السرير ونام ملء جفونه ، ولم يستيقظ إلا على طرقة ساعى البريد الذى جاء الساعة بخطاب .

من سداد إلى رجاء

ضاقت رقعة الدنيا فى وجهى والتفت الهموم من حولى ، فركبت سيارتى ساعة الأصيل ، وسرت بسرعة فى طريق ممهد كأنى ذاهب إلى حاجة أهمنى أمرها ، أو هارب من أشباح رابنى شأنها ، وما أنا ذاهب إلا لأفتش عن الراحة ، ولا أنا فار إلا من الآلام . المركبة تسير فى طريق واسع ، وضوء النهار من حولى ترى فيه دقائق الأشياء . كل هذا دفعنى إلى أن أعجب ، وحين رأيت مركبة تقف فى طريق مركبتى كأنها تريد أن تنازلها أو ترتطم بها ، ولكن فجأة وقفت السيارتان ، ونزل من الأولى فتى فى زى أبناء الأشراف عليه خلاعة الشباب ووقار المشيب ، باسم الثغر ، باسط اليد ، كأنه صديق لم أره منذ أعوام ، وقد استحكمت بينى وبينه الصداقة ، فنزلت من سيارتى وصافحته ، وجازيته مصافحة بمصافحة ، وجاملته ابتساما بابتسام .

ما كنت قبل اليوم أعرف ذلك الفتى ، ولا كنت أعلم عنه شيئا . إلا أننى فهمت من حديث دار بينى وبينه أنه زعيم المنافسين للملك . وأنه هو هذا الذى كان يبتغى عرش البلاد .

دعانى الفتى إلى زيارته فى داره ، فعجبت كثيرا من دعوته إذ لم أجلس معه مرة ولم أتناول معه طعاما ولا شرابا ، فكيف أجلس معه فى داره ؟ لعله يدبر لى مكيدة أو دسيسة .

فقلت له :

ـــ اعفني يا صديق فإن الوقت سجان شديد ، يعاقبني حتى على النظرة واللفتة ، وليس يرضيك بعد هذا أن أعصيه أو أخالف أمره .

فقال الفتى :

ـــ وليس يرضيك أن تخيب أول رجاء رجوته منك فى حياتى ، فإن هذا يترك فى القلب ذكرا أليما ، يعذبنى ويعذبك ويقضى على الصداقة حيث يجب أن تبدأ .

إن كنت تخشى منى غدرا أو خيانة ، فابسط على خشيتك سحابة الطمأنينة ، واعلم أنى لست بالدنىء الذى يغتال النزلاء ، ولا الخائن الذى يشترى بشرفه عرضا من العروض الزائلة ، وظلا من الظلال المتنقلة .

قال هذا فرضيت بزيارته رضا من لا يرى من قبولها بدا .

وقلت له :

ـــ غدا فى مثل هذه الساعة وفى قصرك العامر ، سأقضى معك ساعة من زمان .

قبل الميعاد بوقت قصير ، طرق الباب طارق غريب فعلمت أنه رسول فتى أمس ، فقمت إلى ملابسى ولبستها ، واتخذت الحيطة لنفسى وسرت والرسول من ورائى حتى بلغت القصر ، فإذا بصاحبه ينتظرنى عند بابه وحوله الوصفاء يحرسونه ويسارعون فى طاعته ، فتلقانى بأحسن ما يتلقى به الصديق الصديق . ودخلنا القصر فإذا ملك كبير ، وجنة وحرير ، وعرصات فسيحة الأرجاء ، يضل فى جنباتها النزلاء ، وفراديس زاهية جميلة موفورة الأزهار والأطيار ، وغرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ، وأمواه عذبة نميرة يضيق بها

واسع الغدران ، وأبراج سامقة رفيعة على ذروتها الزهر والقمران .

ولما دخلنا غرفة المائدة رأينا خوانا طويلا حمل الألوان ، وكلل الأزهار ، قد صفت على حافتيه الجامات الذهبية المملوءة بالشراب . فلما أتيناها راعتنى كأس لم أر مثلها فى قصور الملوك ولا الأقيال ، فإذا رأيتها لم يسعك إلا أن تقول إنها من كئوس الجنة ، أو إن هاروت نفث فيها من سحره ، فمن شهدها ملكت عليه بصره ولبه .. شربت ما فيها ووضعتها على الخوان ، فقال لى صاحب القصر :

— أأعجبتك هذه الكأس ؟

فقلت له :

— الإعجاب كل الإعجاب .

فابتسم ابتسامة رقيقة وقال :

— هى لك يا صديق هدية لتكون تذكارا لهذه الزورة الميمونة . فقبلت الهدية شاكرا مسرورا ، وبعد قليل نقش عليها اسمى وجاءتنى فى أقشب الأثواب .

جلسنا بعد ذلك فى حديقة القصر ، فقال لى صاحب الكأس :

— أنا أعلم يا سداد بمنزلتك عند الملك ، وأعلم أنها منزلة عالية . ولكن ألا ترى معى أن مثلك جدير بأعلى من هذه المنزلة ؟

فسكتّ ولم أقل شيئا ، فواصل حديثه قائلا :

— لو كنت أنا فى عرش الملك ، أو قدر لى أن أكون يوما على عرشه ، لبوأتك المقام الذى تشتهيه نفسك ، ولأريتك النعيم كيف مذاقه وعذوبته .

إن هذا الملك ليبخل عليك بالمال ، وهو أتفه شيء يجب أن يرعاك به ، فأنت ساعده وقوته ، وأنت ناصره ومعينه ، وراسم السبل التى تبلغه فردوس النعيم ، ورافع العمد التى تحمل العرش العظيم .

واليوم فاعلم أن سعادتك بين يديك ، فإن شئت شربتها وإن شئت أهرقتها .

فقلت له :

— وكيف ذلك ؟

فقال :

— لو وافيتنا بأخبار القصر خبرا خبرا ، لاستطعنا حياكة دسيسة للملك ، ولاستطعنا قلب ملكه ، ولكنت أنت فى قصرنا السيد المسود ، والآمر الناهى ، والمعز المذل . ولكن لن تبرح قصرى هذا إلا إذا عاهدتنى عهدا لا تخيس به بأن تكتم أمر هذا الحديث .

وتعاهدنا ثم افترقنا .

لا أكتمك يا سيدى أن هذا الفتى زين لى الحياة والخيانة ، وألبس كلا منهما لباسا بدت فيه جميلة خلابة ، وكأنى بك تسألنى :

« هل مالت إليه نفسى ، وهوى الخيانة قلبى ؟ » .

فأقول : أجل . إن الخيانة لا يفارقنى شكلها الجميل ، لا فى قصرى ولا قصر الملك . ولقد زاد شغفى بها حين ذكرت أن الملك لم يثق بى يوم تكفلت بدخولك بين البلاط ، وإنى منتظر رأيك وإرشادك ، ولست بمقدم على شيء ما لم أر رأيك فيه يا رجاء .

من رجاء إلى سداد

ماذا دهاك يا سداد وماذا أصابك ؟

أكنت تظن أنى أرضى لك الخيانة ، أو أغريك بها ؟ وهى التى إن رضيتها لك اليوم ، لا يبعد أن أرضاها لنفسى فى الغد . ومتى رضى الشريف لنفسه أن يكون خوانا كفورا ؟

ماذا دهاك يا سداد وماذا أصابك ؟

أمن غلطة واحدة تقلب لوليك ظهر المجن ، وتعلن عليه حربك وجهادك ، غير ذاكر عهدا ولا حافظ ميثاقا ؟ أمن غلطة واحدة تفعل كل هذا — إن صح أن تعد حيطة المليك لنفسه غلطا ؟

لا يا صديقى ، ليس هذا من الشرف فى شىء ، إن جنين الخيانة الذى يتكون فى نفسك سيكون من قاتليك إن آن له أن يتم تكوينه ، فاقض عليه أنت قبل أن يقضى عليك ، ولا تشحذ السكين لنفسك فإن هذا كثير على دابة بلهاء .

عفت الفضيلة عنك يا سداد . أهكذا يخدعك السفهاء ، ويزينون لك الحياة ؟ ويراودونك عمن أحبك واصطفاك ، وعرف صنيع أبيك فجازاك بالإحسان إحسانا ؟ إن هذا ليزعجنى منك يا صديقى ، ويلقى فى روعى أن عقلك غادر رأسك إلى حيث تغادر العقول الرءوس .

فأين رشادك الذى كنت بالأمس أستضىء به ؟ وأين روحك الطيبة

الطاهرة ؟ لقد توارت وبدت لى روح غيرها . فيأيها الليث لا تقرب فريسة غيرك ، ويأيها الصقر دع مساقط الغربان .

ماذا دهاك يا سداد وماذا أصابك ؟

أما تخشى أن يأخذك الله بذنبك يوم يأخذ الناس بذنوبهم ،أو أن يلازمك طيف خيانتك فى مجيئك وذهابك ، وقومتك وقعدتك ، وفى سريرك بين أحضان زوجك ، وعلى مائدتك بين رياحين أولادك ، فيفسد عليك أمرك ، فلا تهنأ بجيئة ولا روحة ، ولا تنعم بقعدة ولا قومة ، ولا يلذ لك طعام ولا شراب . وإذا زارك النوم حركتك فى سريرك يد الخيانة ، فتقوم من النوم مرتاعا مذعورا ؟

ألا تذكر يا سيدى قول الفتى الذى أغراك وخدعك :

« واعلم أنى لست بالدنىء الذى يغتال النزلاء ، ولا الخائن الذى يشترى بشرفه عرضا من العروض الزائلة ، وظلا من الظلال المتنقلة » ؟

لم يرض الفتى لنفسه أن يكون دنيئا أو خائنا ، أو مشتريا بشرفه عرضا ، فكيف يسوقك إلى ما لم ترضه نفسه ؟ وكيف يحملك ما لم يطق هو حمله ؟ إنك إن أطعته صغرت فى عينه بعد أن كنت ملئها . وما يدريك ؟ فلربما لا يدخلك قصره خوفا من غدرتك وخيانتك ، فتجلس بعد هذا حزينا تبكى القديم الذى أضعته ، وتنعى الجديد الذى ما نلته ، وتندب الشرف الغالى فقد فقدته .

على هذه الكأس المنيرة الوهاجة ، وبجانب اسمك المنقوش هناك ترى كلمة لاذعة خفية ، نقشتها يد الفضيلة فلا يراها إلا الفاضلون . فلو أنك غسلت عنك خطيئتك ، وطهرت منها بدنك وثوبك ، ونظرت إلى اسمك

على جامك ، لرأيت بعده كلمة « الخائن » لتدل عليك كما تدل على الكتاب بالعنوان .

ليلة ليلاء

فى ليلة من ليالى الشتاء المظلمة بعد أن هجع الكون تحت جناح الظلام ، وهدأت السارية والسابحة ، فلم يسر صوت فى الأرض ولا فى آفاق السماء . فى هذه الليلة دهمت عصبة من اللصوص منزل سداد الذى اشتهر بالغنى والثروة فجردوه من كل شىء حتى من الحافظة التى أعدها لرسائل رجاء ، وكانت رخيصة إلا أنها جميلة وعزيزة ، ولكنهم غادروا القصر دون أن يعثروا على الكأس ، إذ كانت فى هذه الليلة حصينة فى حجرة المنام .

أصبح سداد فرأى القصر قاعا صفصفا لا ترى فيه ذهبا ولا فضة . ولا زينة ولا حلية ، ورأى نظام الحجرات ممحوا ، وحافظة الرسائل مفقودة وهى أثمن شىء لديه ، فابتسم عند ذلك ابتسامة أقرب إلى الحزن منها إلى السرور ، بل كانت حزنا بأسرها .

ثم قال :

— يا له من لص جشع ! لقد ظن أن فى هذه الحافظة غاليا أو ثمينا ، ولكن لقد أضله الخوف وأعماه الظلام ، إن ما فيها لهو أغلى العروض عندى ، وإن ما فيها لهو أرخص الأشياء عند الناس .

فيك أيتها الحافظة قطرات الصداقة ، نفثتها الأقلام على الأطراس . وفيك أيتها الحافظة ما يهدئ النفس إن هاجها وسواس . فيك أيتها الحافظة الحدائق

المكتوبة ، والرسائل المحبوبة . فشلًّا ليمين اختلستك أحب ما كنت إلىّ ، وألصق ما كنت بقلبى .

هنا ذكر الغالى الثانى ، ذكر الكأس الذهبية فتنة قلبه وروحه ، وموضع هواه وسلواه ، ذكرها ففتش عنها فوجدها فى غرفة المخدع ، فقبلها قبلة أودعها تهنئته ببقائها وتهنئتها بنجاتها ، ثم وضعها فى مكان أحرز لتمثل دورها العجيب فى رواية حياته ، بعد أن يكشف القدر عن دخيلته الستار .

قسم اللصوص الغنيمة الثمينة غير آبهين بحافظة فيها أوراق مكتوبة ، فتركوها لرجل أمى لا يعرف شيئا عما فيها ، فرماها هذا فى مكان مطروق بقيت فيه ما شاء الله أن تبقى .

إعلان الخيانة

مضت الحافظة أعواما وهى فى بيت اللص تلاق من ساكنيه وأهله ما يلاقيه سقط المتاع ، حتى رآها غلام من غلمان سارقها فأعجبه شكلها ، وراقه ما عليها من الزخارف والرسوم ، فأخذها دون أن يشعر به شاعر ، وترك المنزل إلى رأس شارع من الشوارع العامرة التى لا تهدأ فيها حركة المارة ولا المراكب ، ثم وقف هناك حاملا لها ومتكئا على جدار من الجدر التى خلفه ، فمن رآه فى موقفه هذا ما تردد فى أنها سلعة معروضة مع بائع رث الهيئة تبدو عليه آيات المسكنة التى تثير كامن الشفقة والحنان .

يسأل السائل الغلام عما يحمل وعن سبب وقفته تلك ، فيقول :

ـــ أنا بائع يا سيدى وهذه هى سلعتى ، فإن شئت فساومنى وإن شئت فدعنى حتى يقيض الله لى خير مساوم .

فالتف الناس من حوله معجبين بنشاط هذا التاجر الصغير ، ولكنهم لم يساوموه فى سلعته مساومة يرضاها فأبدى لهم تبرما وغضبا ، فكثرت حوله غمزات السخرية وبسمات الإعجاب ، وأصوات الرضا والرجوع ، حتى مر ضابط من ضباط قصر الملك فاستوقفته الضجة وقدم ليعلم هذا الخبر . فلما علمه اشترى الحافظة بثمن غال لينفض هذا الجمع . ثم أخذها وانصرف .

بلغ الضابط بيته ، وما كاد يستريح من عناء ما ألم به حتى قام إلى مكتبه وعليه فتح الحافظة وبسط ما تحويه بين يديه ، وقرأ الرسائل رسالة رسالة فوجد صديقا يبث صديقه ويشرح وجده ، ويشكو له ألم الوداع ومر الفراق ، ويذكره بالربوع التى رتعا بين ديارها والديار التى تصافيا تحت عروشها ، ووجده فى رسالة أخرى يخبره بنكبة أخفت أباه وأخاه وتركته هو وأمه يعالجان ما يعالجان ، ويقاسيان ما يقاسيان ، ويخبره بأنه ترك ديارا اجتاحها الوباء إلى ديار أخرى عامرة ، وأنه نزل هذه البلاد فوجدها جميلة لذّ له فيها المقام . فذكر أن هذا الكتاب عرض عليه فقرأه قبل هذه المرة ، وكان الخط هو هذا والرسم هو هذا ، وذكر أن سبب العرض أنه رأى سداد حزينا فلما سأله نبأه بأمر هذا الخطاب ، وما جاء إلى خبر الموت حتى غلبه الدمع ، فمد إليه يده به فقرأه وطواه بعد أن عزاه ، واقترح عليه تعزية الحزين .

طوى الضابط الرسالة ووضعها ، ثم أتى إلى الأخيرة فرأى الصديق ينهاه

عن الغدر بالملك ويحذره الخيانة ، ويستعطفه تارة ويهدده تارة أخرى . فأدرك أن هذه حافظة سداد وأنها إنما سرقت فيما سرق ليلة سطا اللصوص على القصر ، وأن هذا هو رد على كتاب كتبه يستشير صديقه فى غدر الملك ، فقال لنفسه التى حدثته أن يكتم الأمر ، ويوارى الرسائل « الملك يا نفسى فوق كل شىء، ولن تسكن القلوب فى الصدور إلا بسكون العروش فى القصور ، ولن يخلص الصديق لصديقه إلا بعد إخلاصه لمليكه » .

إذن تحتم على أن أعرض الحافظة على الملك ليرى رأيه فيها ، ولعلم أن وراءه امرأً تحدثه نفسه بالخيانة ، وأنه جدير بالقتل والصلب لتأكل الطير من رأسه ، وتمزق لحمه تاركة عظامه تسمع خشخشتها إذا لاطمتها الرياح .

مثل الضابط بين يدى مليكه وقدم له الحافظة ، فلما فتحها قرأ ما فيها حتى أتى على الرسالة الأخيرة فرأى فيها ما رآه الضابط ، ورأى ذكر الكأس الذهبية فطوى الرسائل وأودعها الحافظة حتى جاء موعد سداد .

دخل سداد على الملك وحياه تحية الصباح ، فرد عليه ردا تمازجه الغضبة وقال له :

— تعال يا صفيى بجانبى فإن لى معك اليوم أمرا .

وجلسا يتحادثان أحاديث غريبة عن القصر والملك والبلاد والرعية ، حتى أتت الجنود الذين داهموا منزل الخائن ومعهم الكأس الذهبية التى كانت اليوم على المكتب ودخل بها الضابط ، فابتسم الملك وقطب سداد ، ثم وضعت بينهما الكأس لتشهد يوم الفصل كأنها هى الميزان .

قال الملك :

ــ أتعرف هذه الكأس يا سداد ؟؟

فقال :

ــ أجل أعرفها كما أعرف ابنى ، وإن شئتم فقولوا هى كأسى وقد نقش عليها اسمى .

فقال الملك :

ــ إنها جميلة يا سداد لم يحو مثلها قصرى وقد حوى كل جميل ، فمن أين هى لك ؟

فقال سداد :

ــ هى هدية من صديق صدوق قدمها لى إبان زورة من زوراته ، ولقد حفظتها لتكون لها ذكرا .

فسأله الملك :

ــ وما اسم هذا الصديق ؟؟ إنى أحب أن أعرفه .

فقال سداد :

ــ اسمه رجاء ، وعليه معقود كل رجاء .

فقدم له الملك الخطاب الأخير قائلا :

ــ إذن فلابد أن يكون هو صاحب هذا الكتاب ، لأنى أرى فيه اسمه .

أمسك سداد الكتاب ، وما كادت تقع عينه على أول سطر من سطوره حتى ارتعدت يمينه وسقط الكتاب من يده ، ونظر إلى مليكه نظرة جامدة كأنها نظرة المحتضر حين يودع أهله وأحبابه ، ثم دخل فى إغماءة شديدة رأى فيها هول العقاب ، فأحس كأن الأرض تميد به لتذيقه فى بطنها مر

العقاب .

وكأن الملك نسى من غضبه كل شيء فى لغة التفاهم ، فلم يسمعه إلا مرددا كلمة العقاب .

وكأن الخطاب الذى على الأرض أمامه طمس خطه ، وخطت فيه لفظة العقاب ، وكأن تماثيل القصر أصبحت جسوما ذات أرواح فمضت توقد النار ليعلم كيف العقاب ، وكأن أسراب الطيور سانحها وبارحها ، غاديها ورائحها ، حامت فوق رأسه لتأكل من لحمه قبل صلبه ، مستبطئة ساعة العقاب .

وظل فى تخيلاته تلك حتى استفاق على قول الملك :

ـــ اليوم علمت يا سداد أنك منافق ومداج ، وأنك عدو مكاشح للعرش وربه ، أسرك الذهب برنينه ، وملكتك الفضة بصفائها ، فنسيت من هذا نصرتى وولائى ، ووضعت عرشى تحت رحمة قلم صديقك رجاء ، إذ لو كان أغراك أو عاضدك لدبرت الدسائس وأحكمت المكايد .

فبربك ماذا ترى فى نفسك ، وأى عقاب يساوى ذنبك ؟.. أريد أن أسمع منك كلمة الفصل فى أمرك ، ولكن ماذا عساك أن تقول ؟ الموت قليل عليك يا سداد لأنك لو قدر لك النجاح لكنت زلزلت عرشى ، ولقامت الفتن التى تهرق فيها كثير من دماء البرآء . أما دمك فهو دم مجرم خوان ، ومتى تساوت الحسنة والسيئة والظلمات والنور وما يستوى الأحياء ولا الأموات .

إذن ماذا عساى أن أعمل فيك ؟.. أنا أستطيع عذابك بما هو أشد من

الموت وأفظع ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ .

شفيعك عظيم فى هذا اليوم العظيم ، وسأقبل شفاعته يا خائن . أتدرى من شفيعك ؟ هو رجاء صديقك .

لقد خففت عنك العذاب لأن فى سجل أصدقائك اسما طاهرا وروحا شريفة ، تستحق الإحسان لأنها تحفظ الإحسان .. سأشفق عليك ، لأن نفسك — كما تقول — امتزجت بنفسه ، ولأنى قرأت رسائله التى فى حافظتك فرأيت من ورائها فتى أنجبته الفضيلة ليحارب الرذيلة ، وقلبا طهره طل الوفاء فبلغ غاية الصفاء .

سأسجنك يا سداد لآمن شرك ، وليس عندى أقل من السجن شىء .

فقال سداد :

— ولكننى يا صاحب العرش عدلت عن الخيانة ، وحسبك دليلا قرار الملك فى هذه المدة الطويلة بين تسطير الكتاب وهذه الساعة . وهل يرضيكم يا ناصرى بالأمس أن أعاقب على هاجس أو خلجة ؟

فقال الملك :

— ليس من الحزم أن تصبر على عدوك حتى يرشو لك الأسمر والأبيض ، وإنما الحزم أن تميل عليه قبل أن يميل عليك .

أكنت تريد يا سداد أن أنتظرك حتى تخون ، ثم أصب عليك سوط العذاب ؟ ما بال تفكيرك غريبا كقلبك ؟ إنى إن فعلت هذا لا يكون مثلى إلا كمثل من أعطى لعدوه السكين ونام له ، لينظر أيذبحه أم يرحمه ، فعجل هذا عليه بالذبح فلم يعرف منه غدرا ولا وفاء . السجن يا خائن أحق بك من

هذا القصر ، فلا تلمنى ولكن لُم نفسك وقل لمن بعدك حذار حذار من الملك وصاحبه ، فإن جند القدر جنودا ، وبثه عيونا ، فيأتى له بحافظة الرسائل الكامنة فى أحشاء بيتى بعد أن حرك قلم صديقى بما نجاه من نار خيانتى ، فأصبحت عليه بردا وسلاما .

أيها الجنود الشداد الغلاظ كبِّلوه بأغلال شداد غلاظ ، وأودعوه السجن وقولوا له : الآن حق عليك العذاب فابك بكاء النساء ، لأنك لم تعرف طريق الرجال . واعلم أن أفظع العقاب ما يصبه الصديق على الصديق ، وأمضّ المرارة ما سبقتها حلاوة . والرأى الآفن آفة السعادة والهناءة ، وما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه أو على صفحات وجهه ، وكل ستار إلى بلى أو انكشاف . قولوا له : ابق فى سجنك لتلاقى به ذلا وهوانا ، ولتخرج من ظلماته وعذابه إلى ظلمات القبور وعذابها . ﴿ اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

السجن

طار طائر السعادة من يد سداد بعد ما مكث فيها طويلا يصدح فى قيده ويغنى فى أسره ، فسار بعد أن طار إلى السجن دون أن يودع الأهل ولا الأصحاب ، ودخله فرأى ظلمات مركومة فى حجرة عالية الكوى يضيق بابها بالداخل الجسيم ، فيها سرير بال تئن تحته القوائم وإن خف فوقه الفراش ، ورأى الذل جاثما فوقه ينتظره ليعقد معه على البقاء ميثاقا ، فراعه من هذا ما راعه ، وأزعجه ما

أزعجه ، وولى رشده كما ولت سعادته ، وانكفأ على سريره ونام نوما مشردا مذعورا حتى غردت طيور الفجر ، فاستيقظ على تغريدها ، ومكث فى سريره حتى أطلت عليه الشمس من كوة عالية فرأى الدنيا ساكنة من حوله ، كأن من فيها غادرها إلى السماء فلم يسمع إلا صوت السجان وهو يدمدم ويهدر ، وصوت قلبه الواجب الداوى ، وتلجلج أنفاسه فى صدره الضيق الحرج ، فكبر هذا على نفسه وعز على قلبه ، فقال :

— سكنت يا دنياى من حولى وليس لى عهد بهذا السكون ، سكنت سكون ليل الشتاء الطويل الرهيب وكنت قبل اليوم تموجين أنسا وسرورا . فسلى القصر يا دنياى عنى أمس ، وسلى مخدعى عن أرقى وسهدى ، سليهما تعلمى أنى كنت أودع الهناءة وأشيع السعادة ، وأنا لا أدرى أنى مودع ولا أدرى أنى مشيع .

كم قبلت ولدى حتى شفتنى القبل ، وداعبت جوادى حتى مل الدعابة ، وسرت فى جنبات حديقتى طولا وعرضا فودعت أزهارها وأثمارها ، ونظمت طاقة من الزهر ورصعتها بالقبلات من كل جانب ، ونمت فى سريرى فما زارنى الكرى ،... وشأنى طوال الليل تقلب من جنب إلى جنب ، ومن خد إلى خد ، وهمت دموعى على وسادتى فسقتها حتى أروتها ، ونظرت إلى فرشى من حولى فرأيتها مغبرة وعهدى بها ناصعة بيضاء ، فأيقظت زوجى وأولادى وسردت لهم مجمل ما بى ، فاقترحوا على أن أعزف على القيثارة ربما يكون فيها الشفاء ، ولكن أنى تنفع القيثارة وماذا يجدى الدواء على مريض أعيا الأطباء ؟ أنا فى سجنى معذب بكل شىء ،

معذب بالذكريات الأليمة والساعات المتشابهات العقيمة ، وبالأحلام اللذيذة لأنها تذكرنى اللذة وبالمزعجة لأنها تذيقنى الأسى ، وبالصوت أذكره فيبلبل الوجد ، وبالفراشة الحائمة الهائمة .. نعم حتى بالفراشة لأنى أحسدها على جيئتها وذهوبها ، وطيرتها وسقوطها ، فأقاسى من ذلك ألم نارين : نار الحرية المفقودة ، ونار الغيرة المشبوبة .

فوداعا أيتها الحرية الذاهبة ، والسعادة المفقودة . وداعا وداع محب بالوصل ضنين ، ومدله يعذبه الحنين ..

في ذمة الله هذا المدمع القاني
في ذمة الله أناتي وتحناني
في ذمة الحب زوج شفها كمد
في ذمة الحب أحبابي وخلاني
لا أرجع القصر يوما أو أرى ولدى
إلا إذا عاد هذا العالم الفاني

السعادة

احتجبت رسائل سداد عن رجاء زمنا طويلا فضربت حوله الوساوس نطاقا ، والهواجس سياجا ، فجلس يفكر فى أمره ويقلب رسائله القديمة بين يديه ، لينظر ماذا عسى أن يكون الدهر قد فعل ، فلم يهتد إلى حال يطمئن له الفؤاد ، فتضاعف همه وطغى ، ولم يسعه إلا أن يقوم إلى السرير ليستلقى على

ظهره ليقلب الرسائل كما كان يفعل عله يجد فيها عزاء أو سلوة .

قام رجاء إلى سريره وترك أمه تخيط ثوبا لها جديدا ، وما كاد يستقر فى مضجعه حتى سمع صوت قائل يتحدث :

« هذه هى الغرفة التى نريد الآن صاحبها ، لأنى أراها كما كنت أعلم عنها . هذا هو النهر ترتع فيه القوارب وتسير فيه المراكبُ ، وهذه هى أشجار الكافور السامقة تنتشر ظلالها على الماء ما نشرت الشمس أشعتها فى الفضاء ، فتعالوا ورائى أيها الجنود تعالوا » .

سمع رجاء هذا الحديث فقام من السرير منتفضا وأرهف سمعه ، فإذا بنعال تخفق على سلم الدار ثم سكتت ، ولم يطل سكوتها حتى دق الباب دقة غريبة .

فسأل :

— من الطارق ؟

فقالوا له :

— إنا رسل الملك جئنا إليك .

فتجمد فى مكانه جمود الأوراق فى يمينه ، ونظر إلى أمه كأنها تعلم الخبر ، ومرت عليه خواطر كثيرة منها المزعج ومنها المنعش ، ولكنه لم يركن إلى أحدها ولم يؤثر على واحد واحدا ، فقام إلى الباب وفتحه واستمهلهم حتى يرتدى الملابس ، ثم لبسها بين يأس يميته وأمل يحييه ، وأم تندبه وتعود ترجيه ، ولم يلبث أن ودعها وداعا صامتا لا يهمس فيه إلا بالقبلة ، ولا ينطق معه إلا بالزفرة ، وتركها وانصرف إلى حيث لا يعلم .. إلى لقاء أم إلى

دخل رجاء على الملك بقلب واجف لأنه لم يعتد مقابلة الملوك ، فرأى على ثغره ابتسامة كابتسامة الدهر تذهب الخوف وتسكن الروع ، فأحس كأن طائر الخوف يرتفع عنه رويدا رويدا حتى تضاءل وذهب ، ولم يبق منه إلا أثر من الآثار التى تتركها العين بعد الزوال .

قال الملك :

ـــ ألك خليل يا رجاء بقصرى تحبه ويحبك ، وتصطفيه ويصطفيك ؟

قال :

ـــ نعم ، لى وفىّ من أحب الناس إلى واسمه سداد ، وهو عند صاحب العرش من المصطفين الأخيار ، وذراعه القوية التى يناضل بها من عاداه ، وينصر بها من والاه .

فتطامح بصر الملك وافتر ثغره على ابتسامة مازجها الأسى ، ثم قال :

ـــ أتدرى يا رجاء أين الآن ولىّ الأمس ، وناصر العرش ؟ إنه فى ظلمة السجن يلاقى بها أشد مما يلاقيه الملاح الوحيد الضال والليل مسود الجوانب ، والسفينة واهية متكسرة ، والبحر يطغى حولها ويثور .

فأمسك رجاء عن الكلام وأطرق ليحارب الدموع التى راودت جفونه ، وقال فى نفسه « وارحمتاه له ! إنه بائس مسكين . ماذا يا ترى قد عمل حتى مال عليه الملك هذه الميلة ؟ إنى لأخشى أن يكون فعل ما نهيته عنه ، فلئن كان هذا حقا فلست أعرف لدفع القضاء عنه سبيلا » .

ثم أفاق على قول الملك : نعم إنه فى السجن وكرسيه خال ينادى من يعمره ، ولقد اخترتك أنت يا رجاء لتكون مكانه ، ولتكون ناصرى بالغد

كما كنت ناصرى بالأمس .

نصرتنى يا رجاء حين لم أخلع عليك إحسانا إلا كما أخلع على فرد من أفراد الرعية ، أمنحه عطفى دون أن أفكر فيمن أعطف عليه ، فكيف بك إذا فاء عليك ظلى وغمرتك نعمتى ؟ لابد أن أرى منك كل شىء أحب أن أراه ، فهذه آيات الفضيلة بادية على وجهك ، ولقد بدت قبل اليوم قداسة نفسك وطهارة قلبك .

فقال رجاء :

ـــ ولكن أملى يا صاحب العرش أن تسمح لى برؤية صديقى كلما بدت لى رؤيته ، وأن أكتب إليه ويكتب إلى حتى لا يؤلمنى أن أراه سجينا لا ينال منى السلوة والعزاء .

فقال الملك :

ـــ أذنتك يا رجاء بكل شىء ، فافعل مع صاحبك المسجون ما يخفف عنك لوعة الفراق ، حتى يأذن الله بالتلاق إن كان هناك تلاق .

* * *

جليت « إبريسم » مع أبيها يذكران العرش والملك ، ورياح البلى التى كانت ستعصف بهما وتمزقهما كل ممزق ، والقلم الذى أقام دون تلك الرياح سدا منيعا ، والرسائل التى حملها بريد القدر إلى الملك حتى أتوا إلى ذكر صاحبها .

فقال الملك :

ـــ لقد شكرته يا إبريسم على صنعه شكرا يغنى عن الجزاء ، وأحببته حبا

ملأ فراغ قلبى فلم يترك لسواه فيه مكانا .

فابتسمت الأميرة ابتسامة الممازح وقالت :

ـــ إذا لقد أخلت محبتى ديار قلبك لهذا الذى حل فيها ، فرخصت عندك كما ترخص الزهرة الذاوية لا تشفع لها نضرة الأمس !

فأعجب أباها ذكاؤها ، وأدرك ما فاته فقال :

ـــ لا يا بنية ، كل غال إذا قيس إليك سفساف حقير ، وإن عز شيء لدى أو غلا فما هو عزيز إلا من بعدك ، فلا تحسبى أن رجاء على عرش الفؤاد متوج ، بل أنت صاحبة العرشين .. عرش البلاد وعرش الفؤاد .

هنا تبسمت الأميرة وبدا الرضا فى عينها وعلى ثغرها ، وقالت :

ـــ يا أبت ما أنا جادة فيما قلت ، وما ذهبت هذا المذهب الذى تكبح عنه جماحى وتردد عنه قلبى . فما رجاء عندك إلا محسن تجازيه بالإحسان إحسانا ، ويجمل لى أن أحمل عنك بعض هذا الجزاء . أفلا تأذن لى أن أشكره كما شكرته أنت ، فلقد أصابنى من معروفه أكثر مما أصابك منه إذ أبقاك لى ذخيرة الدهر ، ونجانى من براثن العدو الألد ، وحفظ لى عرشا سأحرسه من بعدك وتحرسه أشبالى من بعدى .

فقال لها أبوها :

ـــ أذنتك أيتها الأميرة بكل شيء ، فاذهبى إليه واشكريه فإن الشكر إحسان معجل .

اللقاء

فى فترة من فترات الراحة تتخلل العمل ، كان رجاء واقفا فى عرصة من عرصات القصر يفكر فى صروف الليالى ، وفى مكانه اليوم ومكانه بالأمس ، ومنزلة سداد فى سجنه بعد منزله فى قصره ، وفى الرسائل التى تبادلاها ، والمحبة التي وثقا عراها ، حتى ذكر الرسالة التى وصف له فيها الملك والقصر ، والبلاط والوصفاء ، وذكر أنه كان حدثه عن إبريسم فى تلك الرسالة وقال له : إنها جميلة جذابة ، لا تنظر إلى الحياة نظرة المفتون ، ولا تفتن فى أساليب اللهو والمجون ، وأنها قلما تطل من شرفتها ، أو تسير فى حديقتها ، أو تداعب جوادها ، أو تجنى ورودها .

ذكر هذا فعلم أن صديقه صادق فيما قال ، فلقد مرت عليه أيام ليست بالقليلة وهو فى قصر أبيها لم يلمح لها طلعة ولا خيالا ، وبينما هو فى خواطره تلك رأى فتاة مقبلة تتهادى فى مشيتها ، كأنها تخشى أن تجرح الأرض قدميها ، ونظر إليها فرأى على ثغرها ابتسامة جميلة زادها الحياء جمالا .. ذلك الحياء الذى مسح على خديها فخلف فيهما الحمرة ، وعلى يديها فخلف فيهما الرعدة ، وعلى قدميها فتركهما واهيتين لا تحملان الساقين ، وهما دقيقتان كسيقان الرئام . علم رجاء فى هذه الساعة أنه أمام إبريسم أميرة القصر ووارثة العرش ، فأمسك عن الكلام لهيبة الملك وجلال الجمال ، ثم

أطرق كأنه يفتش عن شيء وما يفتش إلا عن مخرج لهذا الموقف الحرج .

وظل فى سكرته تلك حتى حيته الأميرة فرفع إليها طرفه الساجى الكسير ، وما كاد يحييها حتى التهب وجهه بمثل حمرة وجهها كأنه أبى إلا أن يشاطرها حياءها ، فقاسمها سريعا حمرة الخجل .

قالت إبريسم :

ـــ شكرك أبى يا رجاء بالأمس ولكنى جئت إليك اليوم لأشكرك ، فإن معروفك أثقل جزائى فما استطاع مجاراته ولا منهاضته ، إذن فماذا عساى أن أجزيك به ؟ قليل عليك المال والنشب ، وحقير لدى معروفك الذهب ، فأين الذى أجزى به الإحسان إحسانا ؟ لقد ضللت السبل ، وأعيتنى الحيل .

فقال رجاء :

ـــ تشكرنى الأميرة اليوم وقبلها شكرنى الملك ، وأنا لا أدرى ما الذى أشكر عليه ؟ أنا يا أميرة فى حيرة لست أجد من يخرجنى من فيافيها ، دخلت القصر وما أدرى الذى أدخلنى القصر ، وجاءكم النصر وأنا أجهل فيم جاءكم النصر ، فما هذه الألغاز الغامضة والأسرار المطموسة ؟ أليس معك مفاتحها لأرى الحقيقة المستورة اليوم واضحة بلجاء ؟

هنا أخرجت الأميرة من طيات صدرها كتابا مطويا وقدمته إليه ، فما فتحه ولمح أول سطر من أسطاره حتى علم أنه كتابه الذى خطه إلى صديقه يحذره فيه الخيانة . فأيقن أن فى يده المعراج الذى صعد به إلى السعادة ، وفى يده المهواة التى هوى بها صديقه إلى وهدات الشقاء ..

فأعطاها الرسالة ثانيا وهو واجم صامت لا يدرى ماذا يقول .

فقالت له :

— أليست هذه هى رسالتك يا رجاء وأنت كاتبها ومسطرها ؟

قال :

— نعم ، ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ . ولقد نفذ نداء الفضيلة إلى قلبى فلبيته من حيث لا أشعر . لبيته بقلمى فكان اللسان الناطق ، والرمح العامل ، والجنود التى يستطيع مثلى بعثها لتذود عن وطن لم ينم ليثه تاركا غابه ، إذ الغاب يعنيه كما يعنيه العرين .

فقالت إبريسم :

— أنت يا نافث السحر على صفحات القراطيس ، ومالك أعنة القول وأعنة القلوب ، إن كتبت أعدت الرشاد ، وإن نطقت ملكت الفؤاد . فما أحسبك إلا ملكا هبط الأرض ولابد أن تأتى ساعة الرحيل .

فقال رجاء :

— شكر الأميرة فاق الجميل إن كنتم تعدون ما صنعت جميلا ، ولكن تلك طباع الملوك يقابلون الحسنة بضعفها ، والسيئة بمثلها إن لم يعفوا عنها . ولو لم يكن العدل محور حكمكم ، والإخلاص لحمة عملكم ، ما أبقى الله شجرة الملك ناضرة الأوراق ناضرة الثمر ، ولسلط عليها ريحا عاصفة تبعثر أوراقها وثمارها ، وتتركها عودا عاريا متكسرا لا ينفعه الطل ، ولا يجديه الحيا .

هنا أدركت الأميرة حلول العمل فحيت رجاء وانصرفت .

الحـــب

سهرت إبريسم طول ليلها فى مضجعها تفكر فى أمرها وتستلهم الله فيه الصواب ، فلقد انصرفت بعد اللقاء بقلب غير قلبها ، وحال غير حالها . ولكن هذا لم يمنعها فى بادئ أمرها حتى سجا الليل فهاج لها الهوى ، وما كانت من قبل تعرفه أو تدرى ما جواه .

هاجه لها ، فأحست كأن قلبها يتفتح للحب قليلا قليلا ، والحب يتطرق إلى قلبها فى شوق ولهفة ، فما هى إلا فترة قصيرة حتى تمكن الحب من فؤادها ، واتخذ منه مستقرا ومقاما .

رأت الأميرة رجاء فرأت أجمل الفتيان خلقا وخلقا ، جبين وضاح وثغر لا تفارقه الابتسامة ، وطرف كسير ساج أثقله الحياء فناء من تحته ، وحديث عذب لذيذ ، وخلق مصطفى كريم .

رأته كذلك فأحبته من حيث لا تشعر ، فلما تنبهت للحب حسبته حنينا يعالج بالمنام ، وترقبت موعد النوم فأخلف النوم وعده . إذن ماذا عساها أن تفعل وقد زاد الحنين ، وصحبته موسيقى الأنين ، وإن للحسان أنات حسانا تملك السمع وتأسر الوجدان .

نظرت إبريسم فرأت الدنيا متبدلة من حولها ، فخيل إليها أنها فارقت قصر أبيها ، ولكنها سمعت صوت حارس من حراسها ، ورأت رسائل رجاء

بين يديها تقلبها وتقرؤها ، فيهدأ قليلا ما بها ، حتى كأنها تمائم دائها ، أو كلمات ينفثها الراقى فتبعث الراحة للقلب والجثمان ! أما إن تركتها أو هجرتها فالرعدة عن كثب ترقبها لتتمشى فى جسمها ، كما ارتعد المقرور أرعشه البرد .

هنا أيقنت أن ما بها داء جديد ، وأنه داء القلب لا داء الجسد . هو الحب مسها فهامت فى ظلمات الليل تفتش عن ريح الحبيب ، وقلبها هائم فى ظلمة الصدر يفتش عن ريح الطبيب ، فيا ويح لها ولقلبها مما أصابها ، ويا ويحها من الذى تشكو إليه غرامها .

أتشكو إلى أبيها ؟ وهو الشديد الأصيد الذى يدين بأن الحب عبث والمحب عابث ، وهو الذى لم يمس الهوى قلبه فلم يأرق له جفن ولم يهرق له دمع ؟ أم إلى حاشية أبيها ؟ وهى الأميرة المرفوعة على عرش ستحمله أكتاف الرجال ، وتميد من هيبة صاحبته الجبال ؟ أم إلى حبيبها ؟ وهى التى إن فعلت عقل الحياء لسانها فتقف أمامه كالدمية ، جمال ولا نطق ، وفتنة ولا شعور ؟

إذن إلى من تشكو هواها ؟ ليس لها سوى ربها وقيثارتها وقلمها وقرطاسها ، والليل إن هدأ ، والجو إن سكن ، والطير إن صدح ، والنجم إن لمح ، والبحر إن دوى ، والذئب إن عوى ، وكثيرا ما تشكو من القلب للقلب ، فيه الخصام وكان الخصم والحكما .

كذلك كان شأن رجاء فإنه رأى الأميرة فرأى القمر فى ساحة القصر يدور فى فلكه ، ويسبح فى برجه ، يشرق حين تجىء ، ويغرب حين

تروح ، له أشعة وضياء ، وحسن وبهاء ، وليس له خسوف ولا نقصان .
فتبارك الذى جعل فى القصور بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا .
رآها فأحبها ، ولكنه سخر من نفسه فظن أن فؤاد الأميرة دونه السبع الشداد ، فهو إن أراده طمع فى غير مطمع ، وشام خلبا من البرق يعذبه بنارين .. نار انتظاره ونار هواه .

فكتم سهمه فى كبده ، حذر أن يراه أحد فيضحك منه أو يرثى له ، وكلا الأمرين مذيقانه — إن أبدى هواه — أشد مما يكتم .

فتحابا وكتم كل عن حبيبه ما به ، فسهرت إبريسم ليلها وطال كثيرا عليها ، وما كان ليل رجاء بأقصر من ليلها بل كان أطول وأهول ، لأن الأميرة كانت ترى فى الظلمة لمعة الأمل تسرى عنها قليلا ما بها . كما تسرى عن المحزون نسمات الصباح .

أما رجاء فكان له من وراء الظلام ظلام ، له من وراء ظلمة الليل ظلمة اليأس ، فمثله هو الشقى ومثله هو المحزون .

* * *

فيأيتها القلوب الخافقة وجدا ، متى يوم التكاشف ؟
ويأيتها العيون السائلة دمعا ، متى ساعة الإقلاع ؟
ويأيتها الخدود المعشية دمعا ، متى ساعة الإجداب ؟
ويأيتها النحور المترعات ماء ، متى تشربين هذه المياه ؟
ويأيتها الصدور المليئة هما ، متى تنالين لذة الحياة ؟

* * *

ودت الأميرة أن يجرى الزمان بحادثة تكشف فيها الستار عن حبها وتعلم ما

يضمره رجاء وما يكنه ؛ أما هو فلم يفكر مثل تفكيرها ، ولم يتمن كبير مناها ، بل اكتفى منها بالنظرة فى اليقظة ، والزورة فى المنام ، والابتسامة عند التحية ، وقنع بهذا قناعة اليائس من لذة الحب ونعيم الحياة .

هو يعبدها ولا يرجو منها نفعا ، ويجلها لأنه يرى إجلالها حقا عليه واجبا ، فإن جازته على أدائه فما ذلك إلا لفضلها ، وإن لم تجازه فلا عتب عليها فى فعلها ، وهكذا بقى حبه أياما طويلة لا يشكوه إلى أحد حتى برح به وآذاه بشتى صنوف الإيذاء . وكانت الأميرة قد غابت مدة طويلة لم يرها ولم يعلم سبب حجبها وغيابها ، فآلمه هذا وكبر عليه ولم ير أمامه ثمينا يغلو على رؤيتها ، فلو أن مساوما ساومه فى حياته بأن يراها لبذلها له راضى النفس مرتاح الفؤاد .

الليل رهيب ساكن لا تسمع فيه إلا غطيط النائمين ، والبرد شديد قارس تطوف به ريح خفيفة تمر على الأشجار فلا تسمع لها حفيفا ، وعلى البحار فلا تحدث فيها ضجيجا، وعلى نافذات المساكن المغلقة فتلمسها كما تلمس يد اللصوص مغلق الأبواب ، والسماء مطموسة الكواكب تنتقل فيها أساطيل السحاب السوداء مبطئة متثاقلة كأنها الفيلة فوقها عظيم الأحمال .

كل هذا ورجاء مطل من النافذة يقلب طرفه بين السماء والأرض كالمنجم الذى ينتظر طلوع نجم ، يقلب طرفه مفكرا فيما أصاب الأميرة وما دهاها ، أهى مريضة ؟ إذن قاتل الله الأمراض وكف شوكتها عن العباد ، ما دامت الأميرة معدودة من الأناسى يصيبها ما يصيبهم وينالها ما ينالهم .

أم هى مثقلة بالأعمال إذن تبا لحمل أنقض ظهرها وآفل بدرها ، فمثل الأميرة لا تثقل بالأعمال إنما تثقل باللآل .

فمن لى بمن يأتينى بالنبأ الحق ليطرد وساوس تحوم من حولى ، وأفكارا تعذبنى وتشقينى ؟

لا أحد فى الدنيا يستطيع هذا ، فصبرا على ما تأتى به الأيام .

من رجاء إلى سداد

كتابى إليك وأنا سجين مثلك ، سجين فى غرفتى طريح على سريرى ، ألاقى من المرض آلاما عظاما وأهوالا جساما .

سجنك جميل يا سداد تنعم فيه وإن كان ضيقا ، تنعم فيه بالقومة والقعدة ، والجيئة والروحة ، والنظرة إلى السماء من الكوّة ، وفيها ترى شمس الشتاء وهى مكشوفة آونة مستورة آنا ، وشمس الصيف تغشاها السحائب الخفيفة زمانا ، وجماعات الطيور تغرد ناظمة أسرابها يتقدمها إمامها ، كأنها قائمة فى صلاتها لولا التنقل والمسير . ومن كوى سجنك يصل إليك الهواء عليلا ينعش صدرك ، وتستروح فيه رائحة الحرية المفقودة فينزل على قلبك عزاء جميلا يسليك عن يوسفك وضالتك .

أما أنا فألمى سرمد ، وليلى مسهد ، عشقت فُرشَ السرير جُنوبى فهى لاصقة بها لا تفارقها ، وإن فارقتها فما لشىء سوى الضجعة . فإذا رأيتنى رأيت تمثالا عصفت به الريح فغيرت شكله وطمست معالمه ، أو هيكلا من العظم مجلدا

حوى حشاشة لا يطول مكثها ، وإن شئت فقل هى تشد الآن رحالها لتذهب إلى ربها ، وتحوم فى سمائها مرفرفة بأجنحتها وسأبقى من بعدها جثة فى سريرى لا تصلح إلا للقبر وديدان البلى .

فيا ويح لى من صدرى وضيقه ، إنى إن أخذت الأنفاس أحس كأن الهواء محمل بالإبر وأشعر بوخزاتها فى قلبى وصدرى ، وإن تناولت الطعام فقد فَقَدَ طعمه الطعام ، والشراب ذو غصة لا يكاد يساغ ، والحديث مر حلوه ومره ، والسرير ثقيل سمج الهيئة أود أن أفارقه ولو إلى قبرى ، والقلب معذب يا سداد محرق لا ينفعه العائد ولا يجدى عليه الطبيب .

تعال مكانى يا صديقى إن كنت تشكو من سجنك ، تعال لتدرك أن قضاء الله فى أمرك أخف من قضائه فى أمرى ، فيا صاحب السجن ما أجمل اليوم سجنك ! إن قلبى إليه مشوق وهواى به معلق ، بادلنى إن كنت ضجرا سجنا بسجن ، ومكانا بمكان .

سلّنى يا صديقى برسائلك ، فإنى أجد فيها ريحك وأسمع منها شبه حديثك ، فتخف عنى وطأة المرض ، وتسرح روحى فى ساحات الماضى فترى هنالك حدائق الحب مغروسة عليها سور الوفاء يحرسها ، فلا عاديات الزمان تنالها ، ولا براثن الغدر تؤذيها . والسلام إليك من صديقك الذى يحن إلى لقائك كما يحن إلى الشفاء .

من سداد إلى رجاء

عزيز على مرضك وسجنك ، وإن كنت مريضا تشكو إلى مريض ، وسجينا تشكو إلى سجين ، وعزيز علىّ علتك الزائلة وسجنك المحتمل ، وداؤك الذى يخففه الأحبة من حولك وإن أعياهم فحسبك الطبيب .

عزيز علىّ ذلك وإن كنت لا أرى لدائى حبيبا يخففه ، ولا عائدا يسريه ، ولا طبيبا يداويه .

الليل والنهار لدائك طبيبان ، فالليل إن سكن وسطا على كل ذى صوت فأسكته ، تبدت عليه الرهبة التى تبدو على الرزين الوقور ، وترى فى المعابد الفسيحة التى لا تسمع فيها إلا همسات التسبيح ونأمات التقديس .

ورأيت أشباح المنام تهفو إلى العيون ، وأشباح الأحلام تهفو إلى الأرواح ، وكلها سائرة تقودها الحرية . فإذا رآها المريض المسهد والمحب المعنى غشيته غاشية من الجلال والروعة ، وأنساه الجديد صولة القديم ، فيحس ثقل جفونه ، وذبول عيونه ، وما هى إلا أنة أو أنتان بدل أسراب الآهات المتتابعة ، حتى يذهب النوم بالآهات والأنات .

هنا يرجع شبح المنام أدراجه بعد أن قام بواجبه ، مخليا الطريق لشبح الحلم الذى يحوم فوق رأس الواسن مرفرفا بأجنحته ، محدثا صوتا جميلا تسمعه الروح فتطرب لسماعه ، فتترك الجسد لتكشف الخبر ، وهناك

ترى الشبح الحائم جميلا يغريها جماله ، فتنحو نحوه فى قفزات تتخللها الوقفات ، كما تمشى على الأديم القُبَّرات ، حتى إذا بلغته افتتنت به وهوته ، وطارت ساقطة على ظهره ، فيرتفع هذا بها إلى عالم الأرواح فترى النجوم فى أفلاكها ، والشموس فى داراتها ، واللوح وما يستر ، والقلم وما يسطر ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ كل هذا والشبح واقف يرقبها لأنه موكل بها ، حتى إذا فرغت من رحلتها الليلية حملها وهوى وألقاها على الجسد ، فتدخله حزينة مكتئبة كما يدخل السجن من بعد الخلاء سجين .

هذا هو الليل يمسح عنك العلة ، وإن جمال النهار لكفيل بمسحها إن لم يمحها سكون الظلام .

فلك فى نسمات الفجر نفحة تشفى العلل ، فهى الطبيب النطاسى الذى لا ترى له أداة ولا ذاتا ، وهى الدواء العبقرى الذى لم يبغضه مريض ولم يصنعه صيدلى .

ولك فى حرارة الظهر هدوء من الرعدة ، وسكون من الرعشة ، فهى الثياب التى حاكها الله من خير ما تحاك منه الثياب ، والأبراد التى خاطها بغير ما تخاط به الأبراد ، تريح الجسم وما هى حريرية ، وتدفئ البرد وما هى صوفية ، ويغشى بغشيانها الجثمان الشفاء .

ولك فى جمال الأصيل رسول يلقى إليك الشعر ، فتقول ما يخفف عنك وجدك ، كما يخفف الضعيف بدمعه وجده .

ولك فى غروب الشمس عبرة، تغمرك منها — إن اعتبرت — طمأنينة، ويحلو بها لك الصبر ... هذه هى الشمس مليكة الكواكب ، وزينة السماء والأرض ، وينبوع الحياة والضياء ، تهوى وراء الأفق صريعة جريحة ، تنظر إلى الكون نظرة المودع المحزون . هذه هى الشمس تغشاها نوَب الدهر زمانا ثم تزول ، ونوب الدهر قد غشيتنا إذن فلابد أن تزول . أرأيت كيف الليل والنهار لدائك طبيبان ؟ هما طبيبان ما دمت حرا طليقا . أما السجن فما النهار بنافعه ولا الليل بمجد عليه ، أشباح المنام والأحلام تقودها الحرية ، وأنا سجين فمن ذا الذى يقودها إلىّ ؟ لا شىء فى الدنيا سوى الحظ الحسن ،وكثيرا ما يخطئنى الحظ فأقطع الليل واقفا على سريرى ، قائما على أطراف أصابعى ، مطلا من كوة سجنى ، أناجى الأشباح الطائرة وأناديها ، وما النجوى بنافعتى ولا النداء مدنيها . ونسمات الفجر حرام علىّ كأنها صيد الحرم ، فهى تطوف حول السجن وترى بناءه المخيف وجدره الخشنة العريضة فتنفر منها لأنها ناعمة رقيقة ، وإن دنت فلن تهتدى إلى هذه الكوة الضيقة ، وإن اهتدت فلن ترضى بدخول السجون فى ساعة من ساعات الحياة .

وحرارة الظهر من أين تصل إلى ، وجمال الأصيل كيف ألمحه ، وغروب الغزالة كيف أراه ؟

فلى الله من بائس معذب حرم كل شىء حتى جمال الطبيعة ، وهو النعمة الفائضة المباحة التى لا تصل إليها يد جشع ولا بخيل .

الحب والعلة

لقى رجاء من حبه ما أفسد عليه جسمه وقلبه ، لأنه كتمه فاتخذ له من الفؤاد مسكنا شب فيه وترعرع ، ومن الجسم ملعبا لعب فيه شتى الألاعيب حتى نال منه الضوى والهزال . ولو أنه بث غرامه أو نفّس عنه ما أصابه كل ما أصابه ، إذ طالما شفت الدموع الغليل ، وطالما محت الشكاة العويل .

ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك فلزم سريره وانقطع عن العمل ، وخلا القصر منه وهو العزيز لدى الأميرة والملك ، فأرسله إليه وفود الأطباء فراعهم صغر الداء واستعصاؤه ، وأعياهم كذلك علاجه . المريض محموم ولكن لا ينفعه دواء المحمومين ، وفى كل يوم يترقبون الشفاء فيخلف الشفاء وعده ، فأخذوا ينفضون أيديهم منه واحدا واحدا حتى تخلوا عنه جميعا ، وتركو حياته للقدر يتولاها ، فإن شاء أبقاها وإن شاء أفناها .

* * *

أتدرى يا طبيب ما الذى أعجزك وحيرك ؟ وعمى عليك العلة فما عرفت لها دواء ، وأفسد عليك الدواء وهو مبرىء شاف .

هو الحب يا طبيب علة العلل ومرجع الزلل .

هو الحب يأتى على البلسم البرىء فيمسحه ، وعلى الداء الدفين فيبعثه ، وعلى القلب السليم فيجرحه ، وعلى الجناح المريش فيهيفه ، ويترك للريح

ريشه تهفو به وتطير كل مطار .

هو كتائب تقف وراء المرض فتحرسه وتحميه ، وتحول بينه وبين الطبيب بما تقيمه من القلاع وتنشئه من الحصون .

هو دليل مضلل يلبس العلة ثوبا دون ثوبها ، لا بل يغير من شكلها كما يفعل بأنفسهم متنكرو الجواسيس ، حتى إذا رآها الطبيب عرفها على غير حقيقتها ، ووصف لها غير دوائها ، وماذا يجدى دواء بناه البانى على غير الهدى والرشاد ؟

هو الحب يا طبيب علتك وعلة مريضك ، وعلة دوائك وعلة شفائه ، وعلة قلبه وعلة جسمه ، وما الحمى إلا وليدته وفتاته ، وما الهياج والسكون إلا صحوة وسناته ، فكن طبيب القلب واترك ذا الجسد ، فالداء داء القلب لا داء سواه .

يا طبيب الحب ماذا ترى ؟

أعلة وكرها الفؤاد الصغير ، تفعل كل هذا بالجسد الكبير !

أجل تفعل هذا وما أشبهها فى مقرها بالملك فى عاصمته ، فهو جالس على عرشه والجنود مبثوثة فى مدنه وقراه ، تؤدب من عصاه وتأسر من عاداه . هذه هى الأمراض جنود الحب ملأت أرجاء جسمى وبنت فيه الثكنات ، وضربت فيه السرادقات ، ولكن أين العدو الذى يحاربها ؟ أليس فى جسمى قوة تدفع هذه القوة ، ولا لقلبى سهام تصد هذه السهام .

يا طبيب الحب كيف تعالج القلب ؟

أبالبلاسم والسفوف ، أم بالشراب والدهان ؟

لا هذا يجدى ولا ذاك ينفع . فدعه واتركه .. وفّر على نفسك الكد والمال والقوارير والأحقاق ، وفتش عن الحبيب وسله الحنان ، ففى ميله إلى الشفاء وما ميله خلاف الدواء .

تلك هى علة رجاء بعينها أعيت الطبيب فهاج القصر وماج ، وغمر الحزن الأميرة والمليك ، غير أن حزن الملك كان حزن خليل على خليله ، ووفى على وفيه ، وعظيم أرسل الأطباء فاستعصى عليهم الداء ، وصاحب القصر فقد ريحانة قصره ونجمة نصره .

وحزن الأميرة كان حزن المحب على الحبيب ، والنجيبة على النجيب ، والحمامة على الهديل ، فبكت حتى قرحت منها الجفون ، وسهرت حتى ذوت منها العيون ، وترقبت أخباره فما جاءها خبر حسن . بل المريض لا يقر على قرار ﴿ كالذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ ، فأدركت بذكائها داءه ، وعلمت أنه شيطان الحب مسه ، أما شيطان الجن فلم يصل إليه .. فكتمت ما بها ، وعزمت فى نفسها على أمر كان أمرا .. عزمت على أن تكتب كتابا إليه تسليه ، وتخبره أن النكبة شديدة على قلبها ، ثم تطوى فى خلالها حبها طيا ، وعلى هذا صحت عزيمتها وكتبته إليه بعد زمان .

فى ليلة من الليالى التى حلك فيها ظلام الملمة ، وعظمت على المريض وطأة الحمى ، سهرت الأم والخدم جنب رجاء يعللونه ويجرعونه أكواب الدواء تارة وينضحون جبينه بالماء أخرى ، ويتوجعون له آونة ويرجون شفاءه آنا ، والآهات التى يرتلها من روى واحد تدوى بها الأرجاء وتتجاوب الأركان ، حتى مضى الليل إلا أقله وكاد غراب الظلام يطير من

بجثمه ، فطافت حول المريض حمامة من حمامات النوم فرحوا بها كثيرا واغتبطوا ، ثم تركوه فى سريره مستلقيا على ظهره استلقاءة المرتاح ، إلا أن أنفاسه كانت مضطربة ووجيب قلبه داويا مسموعا .

استقر أهل المريض وما كادو حتى طارت عنه سنته ، فقام من مضجعه وانتصب جالسا فى سريره فخيل إليه أنه شفى وعاد إلى القصر ، فرأى الملك الذى طالما حن إلى عظمته ، والبيت الذى شغف حبا بظبيته ، ورأى الأميرة جالسة فى الحديقة على مقعد من مقاعدها تفكر فى شأنه حزينة مهمومة ، وكأن الدموع تسيل من مآقيها على خدها ثم إلى صدرها فتصنع لها من حباتها عقدا جميلا . وكأنها استكثرت هذه اللآلىء وخافت أن يبدو أمرها فأخرجت منديلها لتجففها وتخفيها .

رأى هذا فعز عليه ، ولم يلبث أن طار إليها بجناحى الشوق لينبئها بشفائه ويمسح عندها وجدها وهمها ، وعلم أنه فى غرفته التى أمضه الجلوس فيها ، وأن الحائط دونه ودون هذا الخيال . فلما جرى إليها باسطا ذراعيه هاتفا باسمها لم يستفق إلا على صدمة قوية أسالت الدم من جبينه ، فقال بلسان المتأوه المكلوم :

— ويح عينى ماذا ترى ؟.. أدماء من جبينى تسيل فضرجت وجهى وخضبت بنانى ؟.. أجل إنها دماء ممزوجة بالحب فهى حارة وغالية ، وهى فى ذمتك يا إبريسم أطالبك بها يوم يجتمع المشكو والشاكى ، ويوم يسترد دموعه الباكى .

لقد أغلى حبك دمائى فصهر قلبى وبرى جسدى ، فيا ويح لى منك هذا

يصيبنى وأنت غافلة لا تشعرين ، ولاهية تلعبين ؟

قفى مسيلك يا دمائى .. قفى فى عروقك فإن قرارك — وإن كنت تؤلمينني — خير من فرارك .. ولكن لا ، هات هات لأنى أريد أن أسطر بمدادك على صفحات أديمى وبقلم بنانى ، أريد أن أسطر الحب آيات باقيات ، وسورا خالدات .

أريد هذا ولكن ماذا تعملين ؟ إن آيات غرامى طويلة وكثيرة لا يكفيها إلا الغزير ، بل إن الغزير لا يكفيها ، فقفى أو انزلى فكلا الأمرين عندى سواء .

دارت هذه الحوادث فى الغرفة وكأنها عند النائمين أحلام تطوف ، ولكنهم تيقظوا بعد قليل فرأوا السرير مصبوغا ووجه المريض ملوثا والجرح واقفا عن المسيل ، فمسحوا عنه كل هذا بعد أن علموا أن ما طرق أسماعهم لم يكن حلما بل حقيقة واقعة ، وما زالوا بجانبه يعللونه ويسلونه حتى ارتفعت الشمس ودق ساعى البريد الذى حمل شفاء المريض .

من إبريسم إلى رجاء

حادى الشفاء يسوقه إليك ، فانتظر وصول الركب بعد قليل ، وعد إلى قصرنا واعمره كما كنت بالأمس تعمره ، فما أنت إلا قمره المضىء وريحانته النافحة .

هذا ما أبشرك به وهو ما دفعنى إلى أن أسطر رسالتى .

فلقد رأيت فى منامى وفى ليلة من الليالى حالكات الهموم ، وإن شئت فقل هى ليلة أمس ، رأيت كأنى جالسة فى حديقة القصر على مقعد من مقاعدها ، وكأنى يا رجاء أبكى حزنا على مرضك وفراقك مجففة دمعى بمنديلى وهو لا يقوى على رد الدموع .

وبينا أنا فى هذه المناحة شعرت بأنفاس واقف أمامى ، فرفعت إليه بصرى فإذا به أنت ، وكأن المرض لم يمسك أو يطف بك .

هنا صافحتك مهنئة واشتدت بيننا المصافحة ، فطار من هزاتها عنى المنام ، والسلام عليك من وفية تود شفاك وتهوى لقاك .

طليعة الشفاء

وصل رجاء كتاب الأميرة وما كاد يمسكه حتى تمشت فيه الرعشة ، كأن القناع كشف عن بصيرته ، فقرأ الرسالة فى الغلاف ، ولكن هو الحب .

له من وراء الغيب أذن سميعة وعين ترى ما لا يراه بصير

فتح الكتاب فكان طليعة الشفاء الذى يسوق الحادى ركبه ، والذى وعدته الأميرة بقرب وصوله ، فلما قرأه عجب ودهش وقال فى نفسه : « لعل ما حدث كان حقيقة واقعة ، إن هذا يصدق الذى رأيته ليلة أمس ؛ ولكن هذا دمى يكذبهما . إن الحائط صدمتنى حينما طرت لأقابلها فأسالت دمى وصبغت وجهى ولباسى ، وهذا هو الدم باق أثره فى الملابس المخلوعة .

إذن لا شيء سوى أن أرواحنا متآلفة ، فرأت روحى ما رأته روحها ، وما ذاك إلا لأنها تحبنى وتفكر فى مرضى ، وإلا فما دعا إلى كتابة هذا الكتاب ؟

إن ما أقوله حقيقة لا ريب فيها ، فأحمدك اللهم على نعمتك الفائضة ، وعطائك الغمر ، لقد كنت أظن أنى شقيت بدخول هذا القصر ، وأن صديقى سعد بدخوله السجن ، ولكن اليوم بدت السعادة الحقة ، والنعيم الخالد .

عفوا يا إبريسم لقد ظلمتك وحسبتك تسعدين وأنا أشقى وأعذب ، فدمائى كفارة هذا الظلم والحسبان ، ودمائى فداء ساعة رأيتك فيها ولو أنها ساعة موهومة .

إنى أرى حجر العلة يتزحزح عن صدرى قليلا قليلا ، بعدما جثم طويلا فحرمنى لذة الحياة ، وحرمنى رقة الهواء .

الدنيا واسعة أمامى كأنها لم تكن تلك الضيقة الحرجة ! وجميلة فاتنة كأنها لم تكن تلك الدميمة الشوهاء ! وغنية بفراديسها وأزهارها وأطيارها وأنوارها ، وأمواجها المنحدرة ، وأوراقها المنتشرة ، ونحلها الحائم الطانّ وحمامها الباكى على الأغصان .

* * *

فى يوم من الأيام التى اشتد فيها الصراع بين كتائب البرء وكتائب العلة ، انتصرت أولاها على أخراها فعزم رجاء على العودة إلى العمل ، وطار الخبر إلى القصر على جناحى السرعة حتى بلغه ، فأخذ هذا زخرفه وازين وبدا فيه

سرادق مضروب تخفق على جنباته الأعلام ، وتنتشر فى سمائه المصابيح ، وفى أرضه أصص الزروع وأرائك الجموع ، وبسط تميد تحت قدمك ميدة الحشيش المتراكم ، وأخونة عليها أشربة السرور فى جاماتها نشوة الجسم ونشوة الروح ، وزينت كل خوان جماعات من الزهر ، حرمت اللذة من أجل اللذة ، وسلبت النعيم من أجل النعيم .

ضرب هذا السرادق لاستقبال وفود المهنئين ، وفيه جلس رجاء فرأى زمرا تجىء وأخرى تثوب ، وخدما تروح ثم تثوب ، وأكفا تبسط للتصافح ، وأفواها كساها الفرح ابتساما والابتسام جمالا ، رأى ذلك ولكن قلبه كان فى داخل القصر ، يفكر فى الأميرة وكيف يلاقيها ، وهل فى طوق قوته أن يشكرها ويصوغ لها عبارات جميلة ، وما زال فى أفكاره تلك حتى انفض الجمع وعاد هو إلى قصره على أن يعود فى الضباح إلى العمل .

الذكـرى

تسلم رجاء عمله وسار فيه بجد ونشاط ، ولكنه كان يعانى كثيرا من ألم الانتظار ، فما مرت عليه دقيقة إلا خيلت له الأوهام فيها خفق نعال الأميرة وهى قادمة تهنئه بالشفاء ، فإذا تسمع رأى ذلك وهما لا وجود له إلا فى سوانح الاحلام ، فيقول :

— ما بال الأميرة لم تأت إلىّ لتعلم أنى كنت فى بحر من حبها زاخر ، وما مرضى وعلتى إلا من أمواجه التى تقاذفتنى ، وأمواهه التى طوتنى

ونشرتني ، ورياحه الهوجاء العصوف التي عبثت بي حتى مزقتني . عذاب من فوق وعذاب من تحتي ، وأمواج وأرواح ، وطفوات وغمرات ، وكرات إلى الأمام ورجعات إلى الوراء ، وروح تفارق الجسد ثم تعود ، وجسم يود أن تفارقه أو ترافقه لينال إحدى الراحتين :

راحة الحياة أو راحة الممات .

وما زلت فى هذا الخضم الصاخب الذى حطم قوارب الأطباء ، وزوارق السحرة والرقاة ، حتى أتانى كتابها الذى نجانى وشفانى بعد أن تحير فى أمرى كل طبيب .

لقد أرسلته إلىّ فما بالها اليوم لا تأتينى ؟ لعل شاغلا من الشواغل جعلها تنسانى فغابت هذا الغياب الطويل ، ولكن ما أظن أن أمرا يعلو على هذا الأمر ، أو شأنا يغلب هذا الشأن . إذن لنا الله يا قلب ممن فتننا وما فتناه ، إنه هو الحب القاتل الذى يعدو على القلب فيبليه ويطمسه فلا يبقى منه إلا هيكل يختلج ، ولكنه لا يحس ولا يشعر ، ولا يفرح ولا يتألم ، ولا يدرك أى معنى من معانى الحياة .

* * *

ثلاثة أيام طوال مثل ثلاثة أعوام ، مرت على رجاء ولم تأت الأميرة ، ولكنها فى اليوم الرابع أتته فى فترة من فترات الراحة ، فاضطرب قليلا لما رآها ، وما لبث هذا الاضطراب أن بدده جمال الذكرى وجمال الابتسام . فلقد ذكر يوم أن أتته فى هذا المكان وفى مثل هذه الساعة لتشكره على اليد الذى صنعها ، والفضيلة التى أبداها ، فلما رآها باسمة بسم ، وصافحها

بكف ملؤها الحب والشوق وقال لها :

ـــ لا يسعنى إلا أن أشكر الأميرة لتفضلها بالمجىء إلىّ اليوم كما تفضلت بإرسال خطابها بالأمس ، وإن خطابك الذى خطه بنانك ما كان الشفاء إلا مداده ويراعه ، وكلمه وغلافه . وإن شئت فقولى هو الشفاء بعينه أتانى مجسما لألمسه ، ومحسوسا لاحبسه .

فقالت الأميرة :

ـــ ما عجبت لشىء فى حياتى عجبى لشيئين اثنين :

أولهما يا رجاء أننى صافحتك فى اليقظة كما صافحتك فى المنام ، وكأن المرض لم يمسك أو يطف بك ، وهذا هو تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بك إذ نجاك من مرضك وأبرأك من علتك ، وأحسن بنا إذ أزهى لنا شمسنا بعد أفولها ، وأنضر لنا زهرتنا بعد ذبولها .

ثانيهما يا رجاء أنك شفيت عند وصول الخطاب إليك ، بعد أن تحير فيك العائد والطبيب ، فبربك ماذا ترى فى هذا الأمر ؟ أتعجب له عجبى أم أنت واقف على حقيقته وسره ؟

فقال لها :

ـــ لا يا أميرة لعمرك لم أعجب ولا طاف بى عجب ، لأن أمرى واضح لا يحار فيه عقل . ألم تعلمى أنك أنت قاتلتى وباعثتى وجارحتى وآسيتى ؟ قتلتنى بحبك ثم بعثتنى بعطفك ، وجرحتنى بلحظك ثم أسوتنى بكفك ، وإن كنت عذبتنى كثيرا بالخيالات والأوهام .

فأذكر أنى رأيت فى ليلة من الليالى التى حلكت فيها الملمة ، رأيتك كأنك

جالسة فى الحديقة على مقعد من مقاعدها تفكرين فى أمرى حزينة مهمومة ، وكأن الدموع تسيل من مآقيك فتصنع لك من حباتها عقدا جميلا ، وكأنك استكثرت على نفسك اللآلىء ، وخفت أن يبدو أمرك فأخرجت منديلا كهذا الذى فى يدك لتجففى به دمعك ، وتقللى من مسيله . فلما رأيت هذا عز على وعظم ، وكبر أن أراك حزينة على مرضى وأنا سليم أعمر القصر ، فطرت إليك بجناحى الحب لأخبرك بشفائى وأخفف عنك الحزن والبلوى..ولم أعلم أنى واهم متخيل ، وأن الحائط قائمة فى طريقى تلك التى صدمتنى فى جبينى صدمة أسالت دمائى ، فصبغت ثوبى وبدنى وأطارت عنى خيالى وأوهامى .

وهنا أراها مكان الجرح الذى لم يندمل ، فأثارت هذه الذكريات كمين الوجد ، وأنبعت غائض الدمع ، فاستحيا منها أن تراه باكيا أو دامعا ، فتركها فى مكانها حائرة بين قلبها وغرامها ، وانصرف إلى مكان العمل .

بقيت الأميرة واقفة فى مكانها بعد أن تركها رجاء ، تفكر فى هذا العهد الجديد الذى ترى نفسها واقفة على بابه ، إن قلبها يستجير بين أضلاعها وتلك هى خفقاته العالية تدل على استجارته ، ونار تتأجج فيه من زمان ولكنها اليوم زادت ، إنها لتذكر حالها بعد اللقاء الأول وترى حالها بعد اللقاء الثانى ، فترى الأول حبة والثانى قبة ، وتحس اليوم حيرة ما كانت تعرفها من قبل إلا بين أسطار الروايات الغرامية ، وفى أفواه العشاق الوالهين . وتحس بدموع ملء عينها ولكنها حائرة لا تهمى ولا تفيض ، وهموم ملء صدرها ولكنها مضطربة لا تستقر ولا تغيض ، بل كأنهما روح المحتضر تأبى إلا أن

تفارق الجسم والجسم متشبث بها لا يرضى فراقها ونواها .

رأت هذا منها فكبر همها واشتد كربها ، ففاضت من عينها دمعة واحدة كانت أول رسالة من رسائل الحب التى بعثها القلب ، وأول درة لمعت فلمحت فى بريقها آيات العشق وشارات الهوى .

* * *

الليل جليل ، والكون قتيل ، والقصر جميل هواؤه بليل ، والفرش وثير ناعم وحرير ، والملك كبير عظيم قرير فما بال الأميرة لم تنم ! إن ليلتها ليلة هائلة أهول من التى رأتها بعد اللقاء الأول .. لقد كانت تعهد الدموع غزارا تسيل إن أحزنها منظر من مناظر الشقاء ، أو حادثة من حادثات البلاء ، فما بالها مستعصية عليها الليلة ؟ تستمطر العين فلا تجيبها بالبكاء العين ، وتمسح القلب فلا يهدأ فى صدرها القلب ، وترقب النجم فلا يفارق مكانه النجم ، والليل كله أفكار وبلابل ، وجيئات وروحات ، وقومات وقعدات ، وآهات متتابعات ، وسكون ثم ثورة ، وزفرة بعدها زفرة ، وخضوع للحب مرة وقومة عليه مرة ، ومناجاة للحبيب البعيد ، ودهشة للحال الجديد .

فمن رآها رأى ليلة من ليالى الشتاء متقلبة متلونة ، هادئة ثائرة ، فساعة تهب رياحها ، وتحف أشجارها ، وتسيل أمطارها ، وتهزم رعودها ، وتومض بروقها ، وتلفظ أمواهها الساقطة من السماء على سطوح الحفائر . وتارة تراها ساكنة هادئة قد أوى كل شىء فيها إلى جناح الظلام ، فسكنت الطيور فى الوكور ، والأمواج فى البحور ، والظباء فى الأكنة ، والوحوش

فى الأوجرة ، والنجوم وراء السحائب ، والحشرات ظلام الخرائب ، فما بقيت سارية فى الأرض ولا سابحة فى السماء . وهكذا قضت ليلة عبقرية كانت فيها لقى بين خواطر عذبتها ، وآراء حيرتها ، حتى أذن مؤذن الفجر فنهضت من سريرها نهضة السجين من سجنه ، وهى عازمة على أن تقابل رجاء ، ثم ليقض الله فى أمرها بما يشاء .

كفّان متصافحان

دخلت الأميرة على رجاء غرفة العمل وحيته بتحية حيا بأحسن منها ثم جلس ، وهى جالسة على مقربة منه تتفرس أسارير وجهه فتلمح آيات بينات تنطق بالحب الكمين ، والوجد الدفين ، واليأس الجارح ، والرجاء الآسى ، واللوعة المعتلجة ، والخلجة المختلجة ، وترى عيونا ساهرة . وجفونا ذاوية ، وشفاها تحاول الكلام ثم تثبت ، ثم تحاوله ثم تسكت ، كأن عليها رقيبا حسيبا شديدا عذابه وعقابه .

قال رجاء :

ـــ كأنى أرى الأميرة عاتبة علىّ فيما فعلت ، وكأن لسانها يراودها لينطق وهى تأبى إلا عقله ورباطه ، ولكن قولى ما شئت واحكمى بما أردت ، فقولك كريم يرضاه قلبى ، وحكمك سديد تهواه نفسى ، وإن كنت لا تعلمين بما قاسيته وما لاقيته .

فقالت الأميرة

— لئن سألتك عن شيء فما أسألك إلا عن الذى عذبنى وأرقنى ، وأرانى ليلة هائلة ما كنت أعرفها ولا أعهدها . لقد رابنى منك بكاؤك ساعة انصرافك ، وإن كنت كفكفت من عبرتك وهدأت من زفرتك ، فما الذى أبكاك فى يوم أنت أجدر الناس فيه بالسرور ، وأحقهم بالحبور ؟

فقال لها :

— أبكانى الذى أبكى من كان لا يعرف البكا ، وأشجى فؤاد الخلى الطروب ، فخفق وحن كلما اهتزت بانة ، أو ناحت حمامة ، أو عرضت ظبية ، أو نسمت نسمة .

قال هذا ثم أطرق فأطرقت الأميرة بإطراقه ، والتهب وجهها بمثل ما التهب به وجهه ، وأحست فى هذه الساعة أنها لا تملك كلمة تقال ، وأن الموقف حرج لا يخلصها منه إلا الفرار ، ولكنها عادت فذكرت أنها ما جاءت إليه إلا لتكاشفه ولتعرف قدر ما يكنه فؤاده ، ولقد نالت الساعة ما أملت .. إنه يحبها ملء جوانحه وقلبه وهى كذلك تحبه ، فليس لها إذن أن تسكت أو تقوم .

وهنا جمعت قواها كما يجمعها الكمىّ ليثب على ظهر جواده ، ثم قالت :

— ألا ترى معى يا رجاء أنه قد جد الجد ، وحزب الأمر ، وأن كاتم الحب كسارق الورد يأبى ألا أن تستره ، والورد فضاح تفوح ريحه ، فيضحى باديا مستورا ومطويا منشورا ؟

فقال :

— نعم ، إنه معنى تضيق به الصدور الواسعة والقلوب الرحيبة ، وإن

اتسع له الصدر فلن يتسع له الصبر ، وإن ضن بظهوره اليوم فلن يضن به الغد . فخير لنا إذا أن نتكاشف ، وأن تسمعيني يا أميرة لفظة الحب فإنى فى ريب من موقفى ومكانى ، وأخشى أن يكون حلم الأمس عاودنى فأستيقظ منه على صدمة أخرى تكون من سابقتها أشد وأنكى .. ويعلم الله أنى ضعيف لم يبق فىّ مكان يحتمل فاجعة أو مصيبة . وخير لنا أن نتعاهد حتى يستقر قلبى بين جوانحى ، وتهدأ خفقاته العالية ووجباته الداوية ، التى كثيرا ما توقظنى من غفلتى وتؤرقنى فى هجعتى .

هنا ابتسمت الأميرة ابتسامة أذهبت القنوط ، ومدت لرجاء يمينها فكأنما مدّ له الدهر يمينه ، أو كأنما تفتحت له أبواب السماء فرأى هنالك ما هو محجوب عن الناس أجمعين ، أو كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها فجلس على عرشها وتحكم فى أهلها .

مدت له يمينها لتعاهده فمد لها يمينه ، وتعاهدا على أن يعيش هو لها ، وتعيش هى له ، ثم حيته تحية الفراق وتركته واقفا فى مكانه يعانى ما يعانى من الحيرة أشد مما عانت يوم تركها ، ويلاقى من الدهشة أشد مما لاقت يوم رابها .

واستمر فى سكرته هذه ما شاء الله أن يستمر ، فلما أفاق قال : سبحانك لم تفجعنى فى أمل ، ولم تشأ أن تقتل قلبا ذبل ، فأمطرته طلًّا باردا سقاه حتى أرواه فعادت إليه النضرة ، وعادت إليه الفتنة ، وحسبى أنى لا أراه اليوم لا راقصا مترنحا ، تسكره كأس النسيم فيسكر ، ويعجبه صدح الحمام فيطرب .

من رجاء إلى إبريسم

ما لى أرانى هادئ البال مطمئن العواطف ! تنساب الخواطر فى خلدى بلطف وخفة كما تنساب الأمواه فى مستقيم الجداول ، فإذا داعبت حصاها صلَّ من تحتها صليلا أغن يطرب له القلب فيسكن سكنة الطفل لأنشودة المهد ، مرسلا دقاته رويدا رويدا شيمة كل مرتاح طروب ، فكأنه البانة سكنت حولها الريح فصمتت حتى لا تزعج طائر الحب بعد ما كمن فى وكره واستحال إلى طير وديع جميل ، وما كان من قبل إلا مريدا لا يمسك غصنا إلا قصفه ، ولا ورقا لا نثره .

ومالى أرانى شديد القوى يا حبيبة ! كأننى لم يمسنى الأمس ضر ولا كرب ، فلقد سرت فى حديقة القصر فرأيت البستانى يعمل والنصب باد على وجهه ، والعرق متصبب من جبينه ، ولكن الفأس فى يده لا تقر على قرار فهى صاعدة هابطة هابطة صاعدة ، فأمرته أن ينصرف ففعل ، ثم أمسكت الفأس وقلبت الأرض ونثرت الحب وأرقت بعد ذلك المياه ، حتى يكون هذا فألا لحبنا حسنا ، ولتكون تلك الزهور من أترابه ولداته ، ووقفا على أكاليله وباقاته .

فعلت هذا فلم أشعر بتعب عرانى كالذى عرا هذا البستانى الشديد . أوَهكذا يفعل الحب بالقوى والقلب ؟ إذن ما للعشاق يبكون ويتوجعون

ويزعمون أن الحب أنهكهم وأضواهم ، ولقد عهدته اليوم رفيقا ورحيما وبرودا وكريما .

عجب عجيب لهذا الشأن الغريب !

كأنى لم أكن أحد الشاكين المتوجعين الدامعين المسهدين ، لقد نسيت كل شيء يا أميرة ، ومحت لذة اليوم شقاء الأمس فلم يبق منه إلا أثر كالآثار التى تتركها عافيات الدهر ، أو أحلام الليل المخيفة حين تذكر فى وضح النهار .

نعم نسيت كل شيء ولكننى لن أنسى هذه الساعة التى التقينا فيها وتعاهدنا فيها ، لأنها ساعة مقدسة شريفة لم نقضها فى ربوع الأرض ، بل هنالك فى السماء بعيدين عن كل ما يقلق ، حصينين من كل ما يفجع . إن قلبى التقى بقلبك ساعة التقى كفى بكفك فتعاهدا وو ثقا العهد ، وتناجيا فأعجبتهما النجوى ، ثم تعانقا قبل الفراق عناقا طويلا كما يفعل الطائران الغريدان ثم يطيران هذا شمالا وهذا يمينا ، أجل إنهما تلاقيا وتعانقا ، ولكننى لست أدرى أين مكان التلاق ومكان العناق ، فيا ترى أكان صدرك أم صدرى ؟ إلا أنه كان صدرى لأنى شعرت بدقات قلبى تزيد وتقوى حتى صارت عاليات داويات ، فأدركت أن هناك قلبين يخفقان .

والسلام عليك من حبيبك الذى لا يعرف إلا حبك ، وصفيك الذى لا يخلف أبدا وعدك ، ونجيبك الذى لا يخون ما عاش عهدك .

تذكــار

وقفت الأميرة إلى مرآتها لتأخذ زينتها قبل ظهورها يوم عيد الميلاد ، وكان من ورائها نافذة يتدفق منها الهواء عليلا ، وتنعكس منها فى المرآة صفحة السماء صافية جلواء ، فترى الحسناء تلك الصفحة فى هذه الصفحة ، وترى أنامل النسائم تعبث بغدائر شعرها الأصفر السديل عبث الهوى بفؤاد العاشق القتيل ، وترى وجهها الجميل فى جمال المرآة وترى جمال المرآة فى وجهها الجميل ،فتأخذ هذه السخريات مأخذها منها حين تراها بعينها فى صفحة مرآتها فتشهد لنفسها أنها حقا جميلة ، وأن النسيم ما دخل إليها إلا ليأخذ من رقتها قبسا ، أو ليغمس يمينه فى ذلك الشعر المتهدل الذى سرق الأصيل منه جماله ، واستعار شجر الخلافِ حبا له .

وتشهد أن ذلك الشعاع المنحدر إنما أرسلته الشمس جاسوسا يرى هذا الجمال الذى ألهبها غيرة ، وآفلها حياء .

نعم ، تشهد الأميرة بهذا كله شهادة غير شهادة الكاذب المخدوع ، ثم تنزل بعد ذلك إلى ساحة القصر تستقبل وفود المهنئين ، فتراه عامرا تصطك فيه الأقدام بالأقدام ، وتختلط الأنفاس بالأنفاس ، فتجلس هنالك على كرسيها أو تقف أمامه ، وكفها لا تترك يمينا إلا إلى يمين ، ولا رسالة إلا إلى رسالة ، ورجاء بين المهنئين يرقب الأمور بثغر باسم ، وقلب خافق ،

وصدر من السرور رحيب يسع الدنيا بأجمعها .

وكيف لا ، وهو الذى نال سعادة ما دارت فى خلده ولا حسبانه ، ولا رسمتها فى صفحة الحياة ريشة أحلامه ؟

إنه هانئ بكل شيء .. هانئ بالصيت والحب ، والمال والملك ، بل الحب حسبه من كل شيء ، فهو الذى هوته الأميرة فلا يفارقها خياله فى يقظتها ولا فى منامها ، فإن تحدثت فلا يلذ لها إلا ذكره ، وإن تنفست فلا يطيب لها إلا ريحه ، وإن زارها طيف فلا تحب إلا طيفه ، وإن صافحها كف فلا تريد إلا كفه .

وأخيرا ، بقى رجاء فى مجلسه حتى أشرف الحفل على الانفضاض ، فأهدى لها هديته النفيسة ثم استأذنها لينصرف ، فخرجت وراءه تشيعه ، ويعلم الله أن ما بقلبها من الفرح كثير لو قسم على القلوب جميعها ما زارها ولا مسها ألم .

خرجا ، وقبل الوداع أبدت له صحيفة ذهبية على شكل قلب مرسوم عليه كفان متصافحان ، فسألها :

ـــ ما هذا ؟

فقالت

ـــ هى هدية الحب صورت فيها موقف العهد وساعة الميثاق ، فاحفظها معك يا رجاء ، واحرص عليها حرصك على أغلى الأشياء عندك ، احفظها واحرص عليها فإن للدهر سطوة على غرة ، وكرة بعدها كرة .

فقال رجاء :

ـــ ما بال الأميرة الليلة بالدهر وتلقى فى قلوبنا روعة ورهبة ما استأذنتا عليه قبل ! اعلمى أن الدهر عنا فى سكرة عميقة لن يصحو منها ، وإن صحا فماذا عساه أن ينال ؟

إن رباط قلوبنا لهو أشد رهبة من رباط الخيل ، وإن عهدنا الوثيق لقلما تنال منه قوة وإن اشتدت كتائبها وكثرت ذخائرها ، فلا تخافى ولا تحزنى ولا تجعلى للجزع سبيلا إلى قلبك ، واعلمى أن دموعنا التى ذرفناها هى اليوم بحار تعج وتصطخب وتقف بيننا وبين الدهر حاجزا منيعا ، وزفراتنا التى زفرناها هى أوار لا يدانيه أوار ، وشرار لا يقاربه شرار ، منتشر ملتهب تراه كتائب الزمان العادى فسرعان ما تفر ، وسرعان ما تغيب .

قالت الأميرة :

ـــ ما أجمل قولك يا رجاء ! إنه جميل يذهب الخوف ، وجميل يسكن الفزع ، وجميل يقتل الجزع ويبعث الأمل قويا فتيا لا هزال عليه من غبار القبور .

ولكن ، لى عندك أمنية يا رجاء وما إخالك ضانا بها علىّ ، أحب أن أسمع اسمى صراحا خالصا ، خاليا من اللقب الذى كثيرا ما تقرنه به . أحب أن تقول يا إبريسم ، فإن حلاوة ندائك تهبط إلى قلبى فيهتز منها اهتزازاة خفيفة ، وينتعش انتعاشة لطيفة ، لا تلبثان أن تسريا إلى جسدى فتغشاه نشوة جلت عن اللسان جلالا كبيرا . هذا هو كل ما أتمناه عليك وما أرجوه منك ، لأنى أعرف الحب مكانا يلتقى فيه الحبيبان إن اختلفت بهما الأماكن ، فهو معراج يعرج به الأدنى إلى الأعلى ، وهو مهواة يهوى بها

الأعلى إلى الأدنى ، ولا يزالان فى طريقهما حتى يلتقيا فيستقرا ، وهنالك تستوى المنازل والمراتب .

فقال لها رجاء :

ـــ سأكون كما أمرتنى ، سأعمل دائما على رضاك حتى يمكننى أن أرضى عن نفسى ، وأنا الساعة أودعك فإلى اللقاء يا إبريسم !

من سداد إلى رجاء

لقلما أبقى على ما عهدت .

دائى عضال عياء لا يعرفه إلا أصحاب السجون ، ومن شفتهم الفرقة وأضنتهم الوحدة ، فلا سقاك الله يوما شرابى ، ولا جرعك ساعة عذابى . لقد ضاق سجنى على جسمى ، وضاق صدرى على قلبى ، حتى كأن جدر السجن تمشى نحوى رويدا رويدا فتضيق بمشيتها جدران صدرى ، فيا ويح لى مما أرى ! إنى أسير كل يوم هائما فى هذه الغرفة الضيقة ، أقطعها طولا وعرضا ساجى الطرف علّى أنال بخيالى هذا لذة من لذات حريتى الفقيدة ، حتى إذا أنهك السير قواى رفعت بصرى فوجدتنى فى مكان لا أبرحه ، وسريرى فى مجثمه لا يفارقه .. هذا السرير الذى أمضتنى رؤيته ، وآسفتنى صحبته ، فمن لى بأجلى وشيكا لا أتركه ، ففى القبر راحة خير من هذه الراحة ، وفى القبر نور خير من هذه الأنوار . آه يا صديقى ، ما أسوأ الأحاديث التى تحدثنى بها النفس ! وما أكثر الوساوس والهواجس التى لا

تفارقني في وضح النهار ، ولا حنادس الليل ! فهي ملتفة حولي التفاف العطاش بالينبوع المنفجر ، فلا تجف الدموع الهواطل ، ولا تغيب الهموم القواتل على أولاد فقدوا أباهم أحب ما كانوا إليه وأحب ما كان إليهم ، وعلى زوج مقروحة الأجفان لا تجف لها عبرة ، ولا تخف لها زفرة ، بل يقطع الحنين كبدها فتبكي كما تبكي الحمامة هديلها ، ولشد ما يمرّ بكاؤها عندما يناجيني ولدها ، ويهتف باسمي وهو أول شيء هتف به ، فكأنه ينادي الهموم أن تعالى يا هموم ، والكروب أن إلينا يا كروب .

أريد أن أراك يا رجاء فتعال إليّ ولا تبخل بوجهك أن تراه عيني لأنها عين مجرم خوان ، تعال إليّ يا رجاء وكن لي عونا على الدهر ، تعال لآخذ من نورك قبسا يؤنسني في سجني ، ويهديني في ظلمتي ، ويرجع بي إلى ساحات الماضي السعيد فأرى هنالك رفات السعادة في أكفانها ، فأبكي عليها البكاء الطويل الذي يشفي الغليل ، ويمحو العويل ، ويسكن النفوس الثائرة ، والدموع الحائرة .

تعال إليّ يا رجاء فما نحن على علم بيوم الفراق ، إذ ربما أشد رحالي لأفارق الحياة دون أن يعلم أحد من أهلي ، فأذهب بذلك إلى مستقر بعيد دون أن أراك وتراني ، وهذا شديد على حبيبين شربا من كأس واحدة ، هي كأس المحبة الخالدة .

تعال إليّ يا رجاء لترى سداد الأمس وسداد اليوم ، لقد أصبحت عظاما كساها الله جلدا ، ورسما من الرسوم التي ترى ولا تلمس ، وهيكلا أضوته اللوعات وهزلته الحسرات ، فإذا نزل به الموت فسينزل على جسد يسعى إلى

الموت بأكثر مما يسعى هو إليه .

كثيرا ما تدفع المرء وحدته إلى أن يفكر فى الأماكن التى ارتادها ، والوجوه التى أحبها ، وفى كل شىء ترك يوما فى نفسه أثرا .

فأنا الساعة واقف على ربوة من ربوات الذكريات أنظر إلى سهول الماضى الفسيحة ، وأتصفح أشباحها شبحا شبحا فلا أراها إلا غامضة مطموسة كالأدخنة المتصاعدة المتضائلة ، والوشوم البالية .. أما أنت ففى السهل باد على كل شىء كالبنية الجديدة الجميلة يخفق فوقها علم الجِدّة ، ويزين هامتها لواء الجمال .

فقدت دنياى يا صديقى وفقدت كل شىء فيها ، ولم يبق لى إلا أنفاسى التى أجود بها اليوم فهى طارفى وتلادى ، وهى عدتى وعتادى ، ولكن من لى بمن يشاطرنيها على أن يرينى الأماكن التى قضيت فيها أيام سعادتى ؟... مَنْ لى بمن يرينى هذه الأماكن التى أحن إليها حنين الجدب إلى القطر ، والمحب إلى الفجر ؟

لا أجد فى الدنيا من يبتاع لى هذه الصفقة ، فقل لى إذن يا رجاء كيف حال الديار ومن فيها ، أهى عامرة كما تركتها تستقبل الشمس بابتسامة وتودعها بابتسامة ، ترتع فيها الظباء وتلعب فى عرصاتها الصبيان ، أم قد أخنى عليها الدهر كما أخنى على فبعثر أحجارها ، وأذبل أشجارها ، وحطم شرفاتها ، وأطفأ ثرياتها ، وتركها ﴿ قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ ؟

وكيف حال الطبيعة أهى منسابة الجداول ، مغردة العنادل ، مترجرجة

البحار ، خفاقة الأشجار ؟

هى طبعا كذلك ، وستبقى ما شاء ربى كذلك ، فاغترف لى من كل جدول غرفة ، واختلس لى من كل بلبل سجعة ، واقتطف لى من كل بستان زهرة ، وتفيأ ظل كل روضة ، واذكرنى عند كل ذلك فإن لروحى فى ذلك لذة ، وإن لقلبى من ذلك سلوة .

زر يا رجاء كل مكان زرناه ، وحى كل إنسان عرفناه ، وقل للأماكن بربك اذكريه فإنه لا يفتر عن ذكرك ، واحفظى عهده فهو حافظ أبدا عهدك ، ولا تطمسى آثاره التى تركها فيك ، ولا تجعلى للبلى سبيلا حتى إلى مواطئ أقدامه ، فإن أعز ما يعز على المرء أن يفارق دنياه دون أن ترثها بعده ذكراه .

رجاء صديقى ، مالى أحس لوعة شديدة فى جنبات قلبى !

وأحس بها كأنها تتزايد قليلا قليلا وكأنها ستكون فى ساعة حريقا يلتهم القلب والأحشاء والأضلاع والأعضاء ، فابكنى يا صديقى ثم استبك كل عين أحبتنى ، فلربما تطفئ جداول المدامع هذه النيران ، أو تخفف من جحيمها وسعيرها .

ابكنى يا صديقى ثم استبك كل من أحبنى ، فإنى أشعر بقرب ساعتى ، ويا لها من ساعة رهيبة مخيفة !

من سداد إلى رجاء

اقتربت الساعة وانصدع العمر ، وأنت بعيد عنى يا رجاء . أنت بعيد عنى جدا ، بعيد بجسمك ، بعيد بقلبك ، بعيد بكل شىء فيك حتى ذاكرتك .

فيا ويح لى مما أصابنى ، لقد فجعنى الدهر فى كل شىء حتى لم يبق فىّ موضع يسع أذاه أو انتقامه ، فجعنى فى سعادتى ، وأصابنى فى حريتى ، وعدا علىّ فحرمنى زوجى وأولادى ، ثم سطا فمنعنى من لذة مالى ، وثمرة حياتى وهأنذا اليوم يخيل إلى أنه أصابنى فى صديقى الذى لم يُبق لى من دنياى غيره ، فهل هذا صحيح يا رجاء ؟

أصحيح أنا أصبحنا متناكرين غير متعارفين ، متجاذبين غير متقاربين ؟ معاذ الود والوفاء ، والصداقة والولاء ، وكف الله عنا شوكة البلاء ، حتى نغادر الدنيا حبيبين كما دخلناها حبيبين .

اليوم كثرت وساوسى ،ونزلت أرض نفسى وفود غريبة من المخاوف ، فثارت عليها جيوش الأمل وكتائب الرجاء ، وانقلبت النفس إلى ميدان تلتقى فيه الجموع ، فهو أبدا ثائر لا تصفو سماؤه ، وهو أبدا ثائر لا تجف دماؤه .

لا يزال حالى يا رجاء تبكى منه العيون ، وتقلق منه الجنوب ، وتذوب

له الأحشاء ، وتتزايل له الأعضاء ، ويتغلب فيه اليأس على الرجاء تغلب الظلمات على الأضواء ، ومن عجب أنى لا أجزع لذلك ولا أحزن ، فقد رضت نفسي على المر حتى لا أحس مرارته ومضاضته ، فترانى إن شربت كأسه شربتها حتى الثمالة ، ثم أنزلتها من على ثغرى إنزالة سقراط كأسه ، أو إنزالة الظمآن أطفأ غلته بشراب بارد وشربة مشتهاة .

والسلام عليك سلام من يعذبه بعدك أكثر مما يعذبه سجنه .

لســان القـدر

قالت إبريسم :

ـــ مالى أراك يا رجاء مهموما كأنما قد نزلت بك نازلة ، أو أصابتك قارعة أو حلّت قريبا من دارك ، وعهدى بك قبل اليوم أن الحب طهر قلبك وأتى على الحزن فطمس شكله ، وغير معالمه ، فأصبحت لا أراك إلا محييا أو باسما أو مازحا أو ضاحكا ، لا يفارق الطرب قلبك ، ولا يغادر الابتسام ثغرك ؟

فقال رجاء :

ـــ بالأمس قلت يا إبريسم : إن للدهر سطوة على غرّة ، وكرّة بعدها كرّة .. وها هو ذا اليوم قد صال فأيقظ الهم من مضجعه ، وأبرز الحزن من مكمنه ، فقلبى حزين مهموم ، وجريح مكلوم ، ولكن حبك غطى على كل هذا حتى آن للدهر أن يكشف عنه فكشف ، فحمل إلى رسالتين من

صديق صباى وصفى شبابى .

حملهما إلى من سداد الذى طالما مكث فى قصركم ، وفنى فى حبكم ، فلما جاءتا كثر همى ، وثار هلعى على صديق تنكر له الدهر فأبلى سعادته بعد جدتها ، فما أسرع تقلبات الأيام وما أعجب تصاريفها !

إنه مريض من سجنه ، سجين من مرضه ، مسهد فى فراشه يودع الشقاء بدموع ، ويستقبل الفناء بدموع . وإنى أحس بدنو أجله لأن علته خبيثة لابد أن تقضى عليه ، فياليته كان حرا طليقا ليهون وجدى إذا مات أن قضى بين أعين ترقبه بالرعاية ، وأكف تقلبه بالشفقة والحنان .

فقالت أبريسم :

ـــ تلك لعمرى أمنية مخلص وأمين ، ولكن كأنها بعيدة المنال .

فقاطعها رجاء بصوت رفعه الغضب :

ـــ لا ، إنها أقرب إلىّ مما فى يدى . لو أنك سعيت عند أبيك بخير يحتمه عليك سابق الجميل ، ولكنكم تستسلمون للأوهام وتركنون للمخاوف . إن الحازم إذا لدغ من جحر مرة فلن يلدغ منه طول حياته مرة أخرى ، وإن من نجا من اليم بعدما كاد يغرقه لا يعود إليه بمحض إرادته ، فقامرى برجائك لأبيك فمن القمار ما حمد.

هنا أطرقت الأميرة مفكرة فى أى البابين تطرق ، وكيف تجترئ على أن ترجو أباها مثل هذا الرجاء ؟ أو كيف تجترئ على أن تغضب حبيبا اشترته بالليالى الساهرة ، والدموع الغالية ؟ كلا الطريقين وعر تحفه المخاطر ، وتمنعه المخاوف .

إذن ليس إلا أن تتنكر وتذهب مع رجاء إلى السجين فى سجنه ، لتتحادث معه ولتقف على ما فى قرارة نفسه ، ثم ليحكم الله بعد ذلك بما يشاء . هذا هو ما أسعفتها به قريحتها ، وما قر عليه رأيها . وفى الصباح كانت الأميرة فى زى فتى وسيم جميل الطلعة ، تبدو عليه علامات الأنوثة وإن جاهد ليخفيها . ثم ركبت مع رجاء إلى السجن حتى أتياه .

انفتح باب الغرفة عن السجين الحزين ، ودخلت إبريسم ورجاء على سداد . فلما رأته ضعفت حتى عجزت عن حملها ساقاها ، رأت كهلا طويل اللحية مشعث الشعر ، نفضت عليه الهموم غبارا كثيفا تبدو من ورائه صفرة شديدة كأنها صفرة الموتى . رأته كذلك فأنكرته لولا أنها متيقنة من موقفها وممن تراه بعينيها ، كل هذا غير من ملامحها فزاد تنكرها تنكرا فلم يستطع سداد أن يعرفها ، وأنى له هذا وقد نال السجن من عقله مثل ما نال من جسمه ؟

دارت المعمعـة التى سترتها ثياب الزيارة ، فبدأ رجاء بتقديم الصديق إلى الصديق ، فقال له :

ـــ هذا صديقى يا سداد علم بأمرك بعد فراقك فألح علىّ أن يراك ، وها هو ذا قد جاء إليك . فلعلك تعدل عن رأيك فىّ ، ولعلك لا تتهمنى بعد اليوم بالعقوق والسّلوان .

فقال سداد بعد أن شكر الصديق الجديد :

ـــ أنا لا أتهمك بهذا يا صفيى ، ولكنى أعلم أن شغل القصر شاغل ، لا يمكنك من زيارتى ، خصوصا وأن السجن فى بلدة غير بلدتك .

ثم سكت قليلا ، ثم زفر وقال :

ــ لهف نفسى على ما أسلفته من خدمة فى هذا القصر ، لقد غرست فيه أشجارا حرموا علىّ ثمارها ، وعاقبونى على جريمة موهومة .. عاقبونى عقابا لا تنسينى مرارته حلاوة عفوهم لو قدر لهم أن يعفوا عنى ويخرجونى من سجنى .. فيا نكبتى فى الحظ اغربى ، ويا منزلتى فى العالمين ارجعى ، حتى لا أذهب إلى قبرى بنار من أجلك تتلظى .

هنا احمر وجه الأميرة ، ورفرف فى صدرها رفرفة الطائر فى قفص يريد منه الخروج ، وأدار رجاء رأسه ليغالب دمعة الأسى والرحمة ، ثم مكثا غير بعيد ، وتحدثا غير طويل وخرجا .

فكأن رجاء لم يودع صديقه السجن إلا فى هذا اليوم ، لأنه كان يرى شعاعا من الأمل يعود نفسه فى الفينة بعد الفينة منذ أحبته الأميرة ، فانقطع الشعاع عن زيارته من يومه هذا ، ولم تعد نفسه تحدثه بأن يحدث الأميرة فى شأنه ، أو تحدثه بأن صديقه سيكون يوما من الأيام حرا طليقا .

ولقد قالت الأميرة مرة ، وذلك بعد الزيارة :

ــ الحمد لله يا رجاء، لقد كشف لنا عن نفسه القناع دون أن يدعوه أحد إلى كشفه ، وما أظنك ترجو أن تعفو عمن لا تنسيه حلاوة العفو مرارة العقاب . إن النفس التى تتحدث بالسوء لابد أن تكون يوما مسيئة ، لأن عمل الجريمة كالحِمَى ، والحديث بعملها حومة حوله ... « ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه » .

خــواطـر

قال رجاء فى نفسه :

ـــ رحم الله سداداساء حديثه فساء مصيره ، وقاد الشيطان لسانه حتى صرعه وأرداه .

فبت كأنى ساورتنـــى ضئيلـــة من الرقش فى أنيـابها السم ناقـع

ليلى طويل يا سداد أطاله همك ، ومصباحى كمصباح العروس لا ينطفىء إلا إذا جف زيته ، والصموت من حولى شامل كله وحشة .. تلك الوحشة التى تسربت إلى نفسى من ليلى فأعداها .

غمرتنـى سكينـة الليـل حتـــى كدت أصغى إلى حديث السكون

الساعة أرى المصباح يجاهد الظلمات لأن زيته قد نضب أو كاد ، فهو يجود بأنفاسه ، والأنفاس غالية يعز حتى على المصابيح لفظها .

انطفأ المصباح ولبست حجرتى سربالها الأسود ، فشهدت نهاية كل حى وكل مضىء ، وشهدت أن هكذا تدول الدولات ، وتنفطـــر السموات ، وتذبل السعادات ، وتضوى الأمانى الحلوة الضحوكة .

وهكذا يقهر الظالم وتدور عليه الدوائر ، وهكذا نقوم القيامة ثم تبلى السرائر .

يا أسراب الهموم ... إنك تتساقطين وتتطايرين ... ألا تخافين شباكا من

الصبر وقناصا من الأمل ؟

ويأيتها الحمائم ... خلعت عليّ الشكاة والأنين والنواح والهدير .

إنك تبكين فتميد تحتك أراجيح الأغصان ، وأنا أبكى فتتجاوب بالصدى مواثل الجدران .

من الورق أنت يا حمامة ، ولقد عرفت فى الورق رقة النداء .

إن كنت ضللت الأليف ففتشي عنه بين شوابك الأغصان ، علّ هادى الأعمى يهديك فيقل الأنين ، ويحبس الحنين .

نامى يا حمامة فقد طابت لك الأحلام ، أو فاشهدى رقص الأغصان مع الأغصان ، على نغمات الأطيار فى الأوكار حين تشرب كأس النسيم .

أنداء الفجر قد بدأت تتساقط فبكت بها الأغصان بكاء صامتا ، وجللت السماء بأسراب طائرة طروب تتجاوب بأغاريدها الأركان ، ونفض النيام سناتهم عن عيونهم ليسمعوا ذلك الفجر الغرد . فليتك يا سداد أحد هؤلاء السامعين ، إن مصيرك يا صديقى ليبكى العروس على جبينها الإكليل ، وإن قلم القضاء قد ملأ صفحاتك بمداد الشقاء فلم يترك قيد أنملة .

هكذا ذهبت ضحية من ضحايا اللسان وفريسة من فرائس الهواجس ، فليتك لم تفكر وليتك لم تقل ، إذن لكنت اليوم سعيدا تسعد بجانبك أناس لا شقيا تشقى لشقوتك أناس .

المـوت

فى مستشفى من مستشفيات السجون ، وعلى سرير من أسرة المرض ، يرى سداد طريحا حوله زوجه وأولاده ، وعند رأسه يجلس رجاء ناظرا إليه نظرة الواله الحزين ، ومقلبا أكفه التى قريبا ستصافح المنون . والجمع ساكن سكون الظلام لا تسمع له بكاء ولا نشيجا ، ولا ترى إلا عبرات صامتات ، ووجوها عراها الوجوم وعلاها القتام ، وقلوبا صغت فى صدورها لترقب الحوادث فسكتت عن وجيبها ، وأنفاس المريض المضطربة المتلجلجة هى التى تشق هذا السكون .

بعد قليل تحرك المريض وأشار إلى صديقه أن اسقنى جرعة ماء فسقاه ، ثم أشار أن أقعدنى فأقعده ، ثم ألقى رأسه عى صدره ورفع طرفه بتثاقل ، ونظر إليه نظرة طويلة بليلة وقال :

ـــ يا رجاء ... اقتربت الساعة الهائلة المخيفة ، فهؤلاء هم أولادى .. وهذه هى زوجى .. أوصيك بهم خيرا .. فكن إليهم خير محسن .

فجاوبه صديقه بعبرات تتساقط ، وزفرات تتصاعد ، وقال :

ـــ لا يا صديقى ، أنت بخير يا سداد فدع الأوهام تجرى نحو مأتاها ، فما بك من شر ولا ضير . إن الشجرة تغلبها على أوراقها عصفة الريح ثم تعود فتورق ، ويعود إليها الحسن والرواء .

أنت بخير يا سداد فدع الأوهام تجرى نحو مأتاها ، فما بك شر ولا ضير . إن أقوالك لتنال منا أكثر مما ينال الخوف منك ، فأين صبرك واحتمالك ، وأين ما كنت أعهده فيك من جلد واصطبار ؟

فقال سداد :

— أودعك يا رجاء وداع محب بالوصل ضنين ، وواله .. يعذبه .. الحنين .

ثم فاضت روحه بين يدى صديقه والمروحة فى يمينه لا تقر على قرار ، فلما رأى ما رأى غشيه ما غشيه ، وجمد فى مكانه جمود المروحة فى يمينه ، فلما أفاق بعد قليل ، قال :

أخى ما دهاك وكنت قبلا — قوى الفؤاد قوى البدن
عن الصدر ملقى فماذا عراك — أنوم وما الوقت وقت الوسن
سكت وأمسك منك اللسا — ن وهل مات حى إذا ما سكن
ألا ما فنيت وإن كان فى — سكونك معنى يهيج الحزن

فتعالت الصيحات ، وتسابقت العبرات ، وتصاعدت الزفرات ، وهكذا انفجرت المراجل التى وقف طويلا دون انفجارها الأمل ، فحمى وطيس المناحة وتقلبت فى جنباتها الآهات ، والتف الصبيان حول أبيهم يكللون جبينه بزهرات من القبل البريئة ، تبعثها الطفولة البريئة التى لا تعرف رزيئة الدهر ، ولا تدرى فجعة البين ، غير أنهم راعهم أبوهم قد حالت حاله فسكت عن لحظهم ، وكف عن لثمهم ، فتفرقت حيلهم لإرضائه ، فمن مقلب ليمينه ومقبل ، ومن معتذر عما فات من الهفوات قائل

إنه لن يعود إلى مثلها ، ومن باك اتخذ من البكاء وسيلة وسبيلا .

يفعلون ذلك وهم يظنون أنه ماكر أو نائم ، لأنهم فى دور لا يميزون فيه النوم من الموت .

أما الأم بقيت فى مكانها تنظر إلى الصريع بأجفان قتيلة ، كأنها لم ترها الأيام نجما هوى ولا زهرا ذوى . تنظر ويمينها منتقل من صدرها إلى جنبها ، كأنما تخاف شيئا على قلبها أو كبدها . ويعلم الله أنهما مقسمان موزعان ، فنصف على السرير تظاهرت عليه الفجعات ، ونصف فى الجنب تظاهرت عليه اللوعات .

* * *

هناك فى مكان بعيد عن ضوضاء المدينة ، وفى وسط مرج من المروج الواسعة التى تعمرها أناشيد الرعاة ، ترى خميلة من الخمائل يبدو بين مشتبك أغصانها بناء المقبرة التى دفن فيها سداد ، والتى يختلف إليها الصديق رجاء كل يوم ليجلس إلى بابها ، ويبلل ثراها بدموعه حتى لا يجف ، وحتى يعلم الدفين أنه خلف من ورائه نفسا تسهر على العهد ، وترعى الأمانة والوصاة ، فترتاح الروح فى قبرها وتخفف نقمتها على دنيا لم تنل منها نائلا ، وإن الإخلاص فى الناس معدن ثمين ، دفن فى بطون القليل من القليل ، ولن يهتدى إليه إلا من احتمل مرارة الحفر والتنقيب ، وإنها لكبيرة إلا على الصابرين .

حـديث

قال الملك :

ـــ خفف عنك قليلا يا رجاء فلقد أبلى الحزن جسدك ، ولقد مر من الأيام ما هو كفيل بمسح الأسى ، ولكن الأسى لم تمحه الأيام . وإن كان فى طول حزنك إخلاص لصديقك فليس فيه إخلاص لنفسك ، وإن ميتة سداد عزت علينا بأجمعنا ، ولكن كيف فيما لا سبيل لنا عليه ؟

فقال رجاء :

ـــ مات الذكاء بموت سداد ، وانطفأ مصباحه فأسفى عليه مضاجعى فى الليل ، ومصاحبى فى النهار .

فقال الملك :

ـــ لقد كان ذكيا حكيما ، ولو لم يعترض الدهر سبيله لنصبناه على هذه الجزيرة الثائرة التى قتلت كثيرا من حكامها ، والتى قتل اليوم حاكمها . وإن مثل هذه الثورة لجدير بمثل حزم سداد وحكمته ، ولقد ناديتك الساعة لأرى رأيك بعد أن طال تفكيرى فى أحزم الرجال ، وبعد أن رأيت من الرأى أن تكون أنت هناك ، إذ عهدت فيك الوفاء قديما ، وعهدت فيك المقال فصولا .

هنا دارت برجاء الأرض الفضاء ، وعلم أن الدهر قد أطل عليه من نافذة

أخرى ، وأنه لابد راميه بفجيعة تشبه فجيعته فى سداد ، فذكر إبريسم وذكر فراقها وكيف يستطيعه ، وفكر فى أى الكواهل يقوى على احتمال داهيتين تصفرُّ من إحداهما الأنامل ، فأجاب مليكه بالقبول ، ويشهد الله أن قلبه يأبى القبول إباء شديدا .

ولقد لاقى بعد انصرافه ليلة ليلاء كأنها ليلة الأرمد كلها سهر وآلام ، واستولت عليه الوساوس فخيل له أن حتفه يناديه ، وأن قبره قد بنى هناك فى تلك الجزيرة بمكان مقفر لا يجوده طل ولا يزوره حبيب .

ولما أصبح رأى الحبيبة فقص عليها القصص ، فساءها كثيرا ما قصه ، وجاوبته بأسف صموت يغنى عن اللســان الحديد .

ثم قالت إنها وقفت فى سبيل هذه الرغبة ولكن جرفتها قوة التيار ، وأنها استعطفت أباها كثيرا حتى كاد أن يرتاب فى أمرها ، وإنها لم تدع سوءة من السوءات إلا نسبتها إليه فى ليلتها الغابرة ، فقد ينفع الرجل فى وقت من الأوقات أن يكون بليدا جهولا ، أجل فعلت كل هذا فما كانت إلا داعية يجاوبها صداها .

فقال رجاء :

ـــ إذن ليس لنا إلا أن ننتظر ساعة الفراق يا إبريسم ، وأن نعد قلوبنا لما عسى أن يحل فيها من الجزع ، ويستولى عليها من الهلع .

فقالت إبريسم :

ـــ لو أنى امرأة نازعها الذئب وحيدها حتى غلبها على أمرها ، فقدمته له مرغمة كارهة فمزقه وولغ فى دمه وهى مكتوفة اليدين لا تعرف لدفع

القضاء عنه سبيلا ..

أو بخيلة أفنت حياتها فى جمع المال وكنزه حتى عجزت عن جمعه فرضيت كارهة بما لديها ، ثم نازعها اللص خزانتها حتى غلبها على أمرها فأخذها على مرأى منها ومسمع ، وهى جالسة تبكى وتنشج .

لو أنى إحدى هاتين المرأتين لاحتملت الفجيعة ، واستهنت المصيبة ، أما فجيعتى فيك وضياع حيلى فى إبقائك ، وانتظار يوم وداعك ، فهذا ما لا أحتمل ولا أطيق .

الــوداع

ذلك يوم مجموع له الدمع وذلك يوم مشهود .

يوم الوداع يا إبريسم ، فيه زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر .

لو أن كل الدهر للعاشقين وداع ، ما كفى الدهر للعاشقين وداعا .

إنا الساعة فى الحديقة تحت شجرة السرو ..

فعاهدينى عهدا جديدا على أن لا يكون للدهر على القلوب سبيل .

وودعينى الوداع الذى أظنه لا لقاء بعده .

قلبى يحدثنى بهذا وما أظنه من الكاذبين .

هنا طار عن فؤادها طائر الصبر وطار فى إثره طائر الحياء ، فأقبلت عليه وأقبل عليها ، وحواهما مقعد لا يتسع لأكثر من جالس ، وعليه تلاقى الثغران الظامئان كما لف منقاريهما غردان ، ودخل المتحاصران فى غيبوبة صعدا فيها

إلى السموات ، وكثيرا ما كانت القبلات البريئات معراجا إلى مدارج الأفلاك .

أفاق رجاء ولم تفق الأميرة ، فنظر إليها والحديقة حولها فاختلط عليه الأمر فلم يعرف الخدود من الورود ، ولا الدموع من العقود ، ولم يعرف العيون من النراجس ، ولا الغصون من القدود .

فكأن الخد ورد ، وكأن الورد خد ...
وكأن العقد دمع ، وكأن الدمع عقد ...
وكأن القد غصن ، وكأن الغصن قد ...

تلك المناظر الخلابة التى تكسو الحبيب وقت الفراق شأن كل نعمة زائلة ، فإنها تحلو كثيرا قبيل الزوال .

وبعد قليل أفاقت الأميرة فأمسكت بيد حبيبها ، وانسابا فى الحديقة بين خمائلها وأزهارها ، وأطيارها وأمواهها ، فلم يتركا غصنا إلا هصراه ، ولا جذعا إلا قبلاه ، ولا ثمرا إلا جنياه ، ولا زهرا إلا قطفاه وتبادلاه ، ولا ينبوعا إلا تساقياه ، ولا طيرا إلا نأجياه ، ولا ظلا إلا تفيآه ، ولا يابسا من الأرض إلا سقياه بالدموع حتى روياه ، وفى خلال ذلك أنات ناعمات ، وعيون ناظرات بجفون ساحرات ، وقبلات متتابعات لا تشفى الغليل ، ولا تهدى السبيل .

وقبل الفراق تضاما ضمة وقفت لجلالها الأغصان عن الرقص ، والأطيار عن السجع ، والأمواه عن الصليل ، والأوراق عن الحفيف ، والنحل عن الطنين ، ولم يبق إلا النسيم يباركهما بيمين هباته ، كما يبارك القس

العروسين .

ثم افترقا بحلوق جافة ، وخدود ندية ، بعد أن ودعته وداعا يحبب ساعات الفراق إلى العاشقين ، ولولا أن فى القلب نارا لكان مكان الوداع فردوس النعيم .

* * *

الشمس فى منحدرها إلى المغرب .

والرعاة بين صائح ومجيب ، ومغن ومردد .

وقطعان الأنعام تنحسر عن المرج رويدا رويدا .

ونسائم الشمال تهب على خميلة المقبرة فتحمل إليها رشاش الينابيع .

وصفحة المرج واسعة تنتشر عليها أشعة الشمس المحتضرة فتغرقها فى بحار من الحمرة .

وجنب السماء دام من طعنة بلا رمح لكنها طعنة نجلاء .

ورجاء بين أشجار الخميلة على باب المقبرة يناجى حبيبه الذى يفضل المقام بجواره على سفر لا يعلم غايته ومصيره ، ويرقب هذه المناظر بعين ملؤها الحب والأسى ، لأنه عما قليل سيفارقها ويحل دارا تتاخمها الصحارى ، ويحيط بها خضم صخوب .

* * *

هى ليلة الوداع طويلة وقصيرة .. طويلة يطولها الألم ، وقصيرة يقصرها الحنين .

ساعاتها غالية ، وأصواتها حزينة ، فكأن فى كل نأمة أنة وكأن فى كل نسمة زفرة .

السفــر

دوى صفير الباخرة إيذانا بالرحيل ، فبدا من نافذتها رجاء يودع أرض الوطن ، ويلوح بمنديل لجمع من أصدقائه ، والجزع مرفرف على رأسه ينتظر ابتعاد السفينة عن الشاطئ ، والبحر هادئ ركود قد ضحكت صفحته بموجات تسطرها أنامل النسيم ثم تمحوها ، والباخرة تبتعد شيئا فشيئا فيغشى الشواطئ دخان البعاد ، حتى إذا غطاها وأخفاها غادر الرجل نافذته ، وسمح للدموع التى طالما حبسها تمسكا وحياء .

ثم قام ثانيا وأطل ، فإذا الدنيا بحار كأنما قد طغى الماء على كل شىء فغمره ، وصفحة البحر ميادة تهتز تحت السفينة فتتناوح تناوح الوليد لهزات الأكف وأناشيد الفراش .

والأمواج هادئات راقصات ساد بينها الصفاء ، فتعانقت فى سكينة تعانق الحبيبين بعد طول الفراق .

ورشاش الماء يحمل رسوم النسيم ، فيمسح وجه رجاء بمثل ما كانت تمسحه إبريسم كى يزيل عنه غبار الهموم . والشمس جانحة إلى الإياب ناظرة للبحر الضنين الخجول ، ملقية صورتها فى خضمه كأنها تغتسل من أدران هذه العوالم المتطاحنة لتعود لخدرها نقية ، كما غادرته نقية وقت شروقها فى الصباح .

وتلفتت عينى فمذ خفيت　　　عنى الطلول تلفت القلب

من رجاء إلى إبريسم

(فوق ظهر الباخرة)

عزيز عليّ الفراق ، ولكن كتب الله لنفترقن فافترقنا ، وما افترقنا على قلى ويشهد الله، ولكن على مثل ما تفارق الشفاه به الكئوس أو مثل ما تفارق الشفاه به الشفاه ، تلك الغلة التى لا تطفئها ينابيع الجنان وإنما يطفئها سلسبيل اللقاء ، غداة يلتقى الوجهان فيبتسم الثغران ويتصافح الكفان .

آه من تلك الكلمة الأخيرة !.. لقد خدشت جرحا فى القلب كاد يندمل ، إذ ذكرتنى بتذكارك الذهبى وما عليه من الأكف ، فأخرجته من حافظتى التى لا يفارقها ولا تفارقنى ونظرت فيه لأتوسمك فيه ، فرأيتك جالسة عليك حيرة كحيرة الوداع .. حيرة سرّت القلب حينا إذ بدا له حبك ، وساءته أحيانا إذا ساءه ولهك ، فليتك لم تودعينى يوم ودعتنى ، وإن عز علينا فراق بغير وداع .

افترقنا يا إبريسم .. وافترقنا على غير انتظار ، وأمر الفراق ما كان كذلك .. فمن ذا الذى يأسو القلوب الجريحة ، والأكباد المنقسمة ، والأنفاس المحترقة ؟ ومن ذا الذى يعيد إلينا سعادة انتهبها الدهر وما انتهبها إلا جائرا وظلوما ، افترقنا يا إبريسم .. فلما افترقنا خلت الدنيا من حولى

وأصبحت مقفرة بعد أن كانت عامرة كلها أنس ، وتسربت تلك الوحشة إلى نفسي فأعدتها ووحشة النفس كوحشة البحر ، ودنيا البحار كدنيا القفار كلها وعورة ومخاوف ، أبعث فيها البصر الطويل الحديد فيرتد إليّ البصر خاسئا وهو حسير .

بالرغم مني ما رمانا به الزمان .. خطب لو كانت تدفعه الصولات لكنت صوالا جموحا ماضي السيف مسموم السنان ، لكنه لا يجدى إلا الصبر والاستسلام ، وإن كان بين الضلوع داء عياء تذوب به النفس لولا ساجمات الدموع .

الدموع شفاء .. حارة تجلب البرودة والسلام ، مريرة تتمخض عن حلاوة أيما حلاوة ، وتنتج ارتياحا أيما ارتياح ، هي كذلك إلا أنها كثيرا ما تكون مصدرا لآلامي وأسقامي ، فكثيرا ما أطلبها فيعييني طلابها لأني أعرف أين غمامها وينبوعها . فأبكي على هذا بكاء طويلا غير دامع ، بكاء لا أعرف به إلا الحمائم ولا تعرفني به إلا الحمائم . البحر من حولي مطمئن نئوم لا أسمع فيه ضجة ولا نأمة إلا ما كان من لغط البحارة وتناديهم من فوق ظهر السفينة ، والسفينة تجرى نحو المطاوح يتعالى صفيرها من آن إلى آن، ذلك الصفير الذى لا أسمعه بعد اليوم إلا ذكرت الفراق ومرارة الرحيل .

فراق على جناحي غراب ... غراب نعب فارتعدنا لنعبته ، فسقطت الكأس من أيدينا خوفا وفزعا ، وكانت — لو أنها دامت — صافية الأديم صافية الشراب .

الوجد عظيم على فراقك .. وإنما يهوّنه قليلا أني ساهر على العهد حافظ

الإلّ والميثاق ، ولولا شعاع من الأمل فى اللقاء ضئيل يجاهد اليأس كما يجاهد القمر أطباق السحاب ، لفضلت الممات على الرحيل ، ولكنت فى عداد المقبورين قبل أن أكون فى عداد المسافرين ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا * وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾

من رجاء إلى إبريسم

(على أشواك حب وغربة)

حب وغربة وفراق وذكرى .

هذه معاول الزمان تظاهرت على هدم قلب كان من أصفى القلوب وأنقاها . قلب صاغه الله من الهوى فقام من معبد الصدر راهبا متبتلا يسبح بحمدك ويثنى على آلائك غير واله ولا ضجر ، ويكفيه فيك أن تكونى راضية تذكرينه فى ساعات الشدائد ، حتى إذا قضى وخلع ثوبه مات صاحبه قرير العين ، لأنه لم يغضبك فى ساعة من ساعات الحياة ، ولأنه اتخذ من حبك تميمة نافعة تنجيه من عذاب القبور .

فى ذمة الله تلك الليالى التى سهرناها وما سهرنا لاعبين ماجنين ، بل كنا معذبين مؤرقين نرعى حدائق الحب ونحميها من لصوص الزمان ، ولما انطلقنا متخافتين وجدناها كالصريم ، فقلنا يا أبانا إنا لضالون ، لا يا إبريسم بل نحن محرومون . تلك هى جنتنا سطا عليها الزمان ، وقد أخذ

الكرى بمقاعد الأجفان ، فجنى أثمارها وقصف أغصانها ، فما ترك لنا ربحا ولا رأس مال .

يقولون فى الحياة جمال ، فأين أين جمال الحياة ؟

ويقولون فى الحياة ابتسام ، فأين أين ابتسام الحياة ؟

كلا الجمال والابتسام معنيان لا وجود لهما إلا بين أحضان الحبيب . والحبيب بعيد عنى بينى وبينه عباب طام .

وجوه غريبة أراها فى مستقرى الجديد فلا أطيق صبرا على مرآها ، لأنى لا أرى بين دياجيها بدر وجهك الوضاء ، ولأن الصبر ودعنى يوم ودعتك فتقطعت بى من بعده الأسباب ، فما أمر الوحشة وما أمر الفراق !

أما الفراق فلقد بلوناه سويا فبلونا المر من شجره ، والوحشة أظننى انفردت بها وحدى فى ديار يضل فيها طيف الخيال إلى المزار ، فلله ما أثقل العبء ! ولأثقل من العبء أنى لا أجد من يضعه عنى بعد أن أنقض ظهرى ، ووهنت من فداحته قواى .

أين جمال مناى يا أبريسم ، وأين جمال مناك ؟

أين جمال جسدت جماله الأزهار على قدود من الأغصان ؟ وأين جمال حارت فى تصويره الأفهام فاعترفت بالعجز والإعياء ؟

لقد واراه الزمان فى أكفان من اليأس وأحداث من الهموم ، فأقمنا عليه المناحات الباكيات ، وكأن القلوب فى الصدور النائحات ، فما أغنى عنا كل هذا فتيلا .

غمام على يأس الهوى ورجائه　　　وشوق على بعد المزار وقربه

من إبريسم إلى رجاء

ماذا أصنع بالعيش من بعدك يا رجاء ، وأى أمنية بقيت لى فى الحياة ؟ بل أى ديار أجد فيها راحة الصدر ؟ وهو ذلك الحرج المضطرم الذى اجتواه الفؤاد فرفرف فيه رفرفة الطائر المسجون .

ماذا أصنع بالعيش من بعدك يا رجاء .. قل لى بربك ؟.. لقد تركتنى جسدا لا قلب فيه ، وكيف حياة الأجساد بعد القلوب ؟

إنها يقظة تدعى يقظة الموت ، لا تنهب فيها لذة ولا تجنى فيها ثمرة ، بل كلها وداع وآلام ، وأفكار وذكريات ، فآه لقد سرق الدهر سهامى ثم رمانى بعد ذلك بسهام .

لقد كنت أهوى أن أكون على الميناء حين دوى صفير السفينة ، ولكننى فضلت ألا أكون حتى لا يرانى أحد جازعة ،أو يعلم أن أشجانك وقف على لدى التوديع .. ففى كلاءة الله عن بعد ..

كنت أردد هذا المقال وأنا فى الحديقة فى مكاننا الذى فقدنا فيه السعادة ، فلعل النسيم حمله إليك لأنه رق لى فاعتل إشفاقا .

أتدرى يا رجاء كيف تعزى ؟.. ذلك الناضر الضحوك الذى يهوى الابتسام ، ويهواه الابتسام ؟.. لقد أصبح فى كمّ لن يتفتح وإن روته أنداء المدام ، حتى لقد ارتاب فى شأنى أبى فهو لا يفتر عن مساءلتى ، فترانى ساعة

أتمارض وأخرى أتكلف السرور والابتهاج .

قد كنت أرى بين أسطار الروايات أوصافا للوداع وللفراق فأقول : إنهم خادعون مبالغون يلبسون الحقائق ثوب التهويل والتفخيم ، ولا زلت كذلك حتى بلوتهما ، فشهدت أن الوصف دون المعانى ، وأن واصف الجبل لن يصور جلال الجبل ، وواصف القمر لن ينقل جلال القمر ، فهل أنت فى عذاب مثل عذابى ؟.. أرجو ألا تكون كذلك حتى لا يتضاعف المصاب .. ولعل تجوالك فى ديار أنت تجهلها يعزيك قليلا ويسليك .. أما أنت فكما عهدت ، من الغرفة إلى الحديقة ومن الحديقة إلى الغرفة ، لا أجد صبرا على إحداهما كأن الراحة تحل حيث لا أحل ، فإن حللت الحديقة حلت الغرفة ، وإن حللت الغرفة حلت الحديقة .

أنا على عهدك مقيمة فليهنك ذلك منى ، وليهنك أنك أول من أفكر فيه عند اليقظة وآخر من أذكره عند المنام ، وأننى أذكرك عند كل عقبة من العقبات بل فى أحرج ساعات الحياة .

أما أنا فيكفينى منك أنك أحببتنى حقبة من الزمان ، وأنى أخطر ببالك من حين إلى حين ، والسلام .

من رجاء إلى إبريسم

لا زلت حتى الساعة أشعر بأنى وحيد غريب ، ألاقى من آلام الغربة وآلام الثورة ما لا يطيق مرارته مطيق .

ولكن آن لى أن أكسر هذه الحدة وأن أخضع الثورة ، فالجزيرة قريرة ساكنة بعد أن كانت تتجاوب بها الأصوات كأصوات البحر من حولها ، ولم يبق من الأخطار إلا خطر القرصان التى تنزل إلى القفر ثم تنساب إلى القرى وتعمل فيها معاول التخريب .

ولقد نظمت لذلك حراسا على الشاطئ حول الجزيرة كلها ، ففاء عليها الأمن واكتحلت بالكرى سواهر الأجفان ، وما أظن أن لذة هؤلاء بأكثر من لذتى ، فلقد وثقت أنى اليوم كفء لمحبتك ، وأن خير قربان أقدمه لقلبك ليكون راضيا عنى بعد أن رضى فؤاد الوطن .

تريننى إذا جن الليل وهجع كل حى فلم يبق سارية ولا سابحة ، أتجول لأرى حراس الشواطئ ولأعرف اليقظ منهم والغافل .

وتريننى ليلة أركب الجواد وليلة أختار المسير ، غير أنى لا أقطع شوطا بعيدا — غالبا — إلا إذا كنت راكبا .

أما قصرى فجميل يقع على شاطئ البحر وسط جنة بربوة ، تهب عليه نسمات الصباح التى تلطفها لجة الماء ، فإذا مرت على الحديقة حملت إلى

فى مخدعى أريج أزهار الياسمين ، تلك الأشجار التى كسا السور منها غلالة جميلة رقيقة خضراء .

قد أخلو بنفسى ساعة فى إحدى حجرات قصرى ، فأشرف من نافذتها على البحر وأرى منها صفحته الواسعة المنبسطة تجرى عليها صافرات البواخر ، فيأخذنى من ذلك غيطة ورهبة ، ويذكرنى موقفى هذا بموقفى فى السفينة يوم الفراق ، فأنظر إلى البحر نظرة الحانق المغيظ ... نظرات لو صورها اليراع على القرطاس لاحترق من شرارها .

إلى هذه الليلة التى أسطر فيها رسالتى لم يزرنى خيالك فى كراى ، إذن فمتى أراك يا إبريسم ليمسح على جرح الفؤاد ليخف ، أرسليه إلىّ إن كنت تستطيعين ، فعندى رسائل شوق لست أكتبها .. رسائل لا تمليها الأفواه إلا على الأفواه ، ولا تقرؤها الشفاه إلا فى صحاف الشفاه .

فى كل يوم يطرق باب صدرى بريد ذكراك فينتعش لطرقاته القلب إن نام ، ثم يزوده برسالات من الآهات يجوب بها خضم البحار .. إنها لتتخفف عنه كربه وإن كانت دليل كربه ، فكثيرا ما يشفى الخمر شارب الخمر ، وكثيرا ما يكون فى السموم الشفاء .

لا تخشى على العهد شيئا يا إبريسم فإنه فى القلب يبقى ببقائه ويبلى ببلاه، واعلمى أن عين البصيرة لا تقف دون رؤيتها البحار ، فأنا ألحظك بها ما دمت غائبة عنى ، حتى ليخيل أحيانا إلىّ أنى ألمح حركاتك وسكناتك وجيئاتك وروحاتك ، كأنك معى فى قصرى أو كأنى معك فى قصرك ، وإنى ليطربنى أن حبك فى قلبى قد زاده النوى والبعاد .

من إبريسم إلى رجاء

لم أكتب إليك من زمان ولم تكتب إلى ، فلعل ما ألهاك عظيم كالذى ألهانى .

كنت مريضة يا رجاء تظاهرت علىّ علتان ، علة القلب وعلة الجسم ، أما علة القلب فأنت أعلم الناس بها وأخبرهم بشئونها ، وعلة الجسم سأنبئك عنها وعن مأتاها بصراحة واختصار .

أقام عمى فى قصره ليلة ساهرة للاحتفال بزواج ابنه الكبير ، ودعانا إلى هذا الحفل فسارع القصر إلى تلبية النداء ، ولم يظهر التثاقل والتبرم أحد سواى ، لأننى لم أر فى نفسى قوة تكفى للتسلط على حزن رمانى به الفراق ، فخشيت أن أظهر حزينة كئيبة وسط جمع كلهم حلف سرور وصفاء . ولكننى لم أر بدا من الذهاب نزولا على إرادة أبى فذهبت ، وكنت أجامل الماجنين بمجون متكلف ، ويعلم الله أنه أثقل الأعباء على جسد متضعضع واه .

ولما انتهى الحفل وتفرق المجتمعون تفرقوا باسمين يملأ السرور ما بين جوانحهم ، أما أنا فقد تضاعفت آلامى وأحزانى ، وشعرت أن الأرض تدور من حولى ، وأن هذه المصابيح ضئيلة وهى منيرة تتضاءل دونها الأقمار ، ولأيا بلأى ركبت سيارتى ، وما وصلت إلى حجرتى واستلقيت

فى سريرى حتى أسلمت نفسى لنوم مشرد وأحلام مزعجة مخيفة ، كنت أستيقظ منها فى الفينة بعد الفينة ، فما أصبحت عادنى طبيبى فألفانى مريضة فأسعفنى بما أسعفنى به . لكنى لازمت الفراش عشرين يوما لاقيت فيها من آلام القلب وآلام الجسم ما جعلنى أعتقد أن النفس البشرية كثيرا ما تحمل أوجاعا لا تحملها غيرها من النفوس .

وإنى لأذكر ليلة اشتدت على فيها العلة حتى وثقت أن الموت يستأذن على ، وليس بينى وبينه إلا أن يفتح الباب .

هنا ذكرتك يا رجاء وذكرت وقع المصيبة على فؤادك إن فجعه فىّ الزمان ، فرثيت لحالك وبكيت لمصابك بين يدى طبيبى وعوادى .

بكيت بكاء طويلا ظنوه من وجع المرض ، وهم — لو يعلمون — مخطئون ، لأنى لست أبكى على نفسى إنما أبكى على نفس أعز على من نفسى .

لا يحزنك شيء مما فات من مرضى ، فإنه حادث ولّى مع أمس الدابر ، وليس لنا أن نفكر فى قديم يسيء فإن الزمان أشبعنا إساءة ، بل فكر فيما تراه جميلا يطرب القلب فى رغبته ، ويخفف من محنته . وأعلم بأنى خير من سهروا على العهد وأقاموا عليه ، والسلام .

تجـــوال

هى ليلة من ليالى الشتاء ساكنة رهيبة ، رقدت فيها كل العيون إلا عيون النجوم ، فقد بقيت سواهر ترقب السارى بأبصار ملؤها الغمزات . ظلامها دامس تتلمس فيه الكواكب مسالكهاإلى مغاربها فلا تهتدى إليها إلا بعد جهد وتعب . أطل فيها رجاء من نافذته فرأى جلال الليل فى مجثمه ، وتسمع فلم يسمع حسا ولا حركة كأن آدم لم يزل فى جنته ، والأرض خربة لا يخطر فيها إنسان ، ولا يعيش فيها حيوان ، وكأن الجنوب هجع ، والعيون نوم ، حتى عيون الأحبة ، فلم تبق إلا عينه وعين حبيبته التى تهتف باسمه ويتعالى هتافها فتردده من حوله أحجار غرفته ، كأنما قد ركب فى كل حجر لسان حديد .

ضايق الحاكم هذا الخاطر وضن براحته القليلة التى بدونها لا يقوى على عمل ، والتى اشتراها بطويل الصبر وعظيم الاحتمال ، فسار إلى جواده وأسرجه وألجمه لينساب به فى أحشاء الظلام انسياب الأسرار فى مكامنها ، كى يرى حراس الشواطئ ليتعرف حالهم فى هذه الهجعة وتلك السكتة . فلما فعل وجدهم أيقاظا لا يغفلون عن رعاية ما وكلوا برعايته ، فسره منهم ما رأى ، وأدرا جواده الذى كاد يضنيه السرى ، وكانت الريح قد بدأت تهب فتسمع لهباتها أنينا مخيفا تقشعر منه الجلود. ثم تبادلت الهبات المنقطعات

إلى أخرى متواليات عزفت جنبها فقعقعت لها قبة السماء ، وجاءت جماعات السحاب يمسك بعضا بذيل بعض ، فاختفت النجوم اللوامع التى كانت خدعة السارى ، ولبس الجو قناعا من الغبار ، والغبار قناعا من الظلام ، وعج الليل واصطخب ، والجواد يسير سير السفينة التى نام ربانها وتركها للريح والأمواج ، فهو تارة يتيامن وأخرى يتياسر ، ظانا صاحبه أنه فى سواء السبيل ، وهو — لو يعلم — يمشى مشية الأعشى تقود أقدامه الأقدار . توغل رجاء فى الجبل وحاد عن جادة الطريق ، وقرعت جواده أسواط الرياح فوهن من كثرة القرع الجواد ، حتى وقف بصاحبه وكف عن المسير ، وعبثا حاول أن يسيره ، فدب دبيب الخوف فى قلب ما كان يعرف الخوف ، والتفت حوله المخاوف والأوهام حتى نزل عن صهوة الجواد ، ونادى نداء المستغيث :

— النجدة .. النجدة .

فما سمع إلا زفير الرياح يجاوبه بصوت أجش ، وأكثر الحصان من التصهال وملأ الرعب ما بين جانحتيه ، فعلم أن الأمر قد قضى وأنه ولا شك قد ضل الطريق .

إذن فما العمل ؟ والليل بارد والظلام حالك والمسالك متشبعة ، والنداء يتبعه النداء فلا مجيب ولا مردد ، والجواد منهوك القوى لا يستطيع نقل قدميه فى تلك الرمال ، والسماء مطموسة الكواكب لا يرى فيها نجم يهتدى بهديه أو يسرى على ضوئه .

إنها لضلة بقفر مَهْمه يضل سرب القطا ويحار .

وإنها لحيرة تقف من هولها شعور الرءوس ، وتقف دقات القلوب .

هنا أسلم رجاء للقدر روحه كما تسلم الشاة للذئب روحها ، وجلس فى مكانه على مقربة من جواده الذى لا يفتر عن الصهيل ، ثم فكر فى نفسه وتصفح صفحات حياته صفحة صفحة فقرأ فى مبدئها حلاوة الصداقة ثم مرارة البين ، وقرأ سعادة الغرام التى اختلسها فى غفوة من غفوات الزمان ، فلما صحا الزمان استرد منه ما سرقه ، وقرأ حكمه الجزيرة ورضاه بكارثة الفراق ، ثم قرأ ما كتبها اليراع فى صفحتها الأخيرة من ضلاله فى هذه الصحراء ، وموتته ميتة لا يرضاها عدو ولا حبيب ، فصاح صيحة عظمى رددها صهيل الحصان وصفير الرياح ، ورددها فؤاد إبريسم وهى قائمة فى مضجعها تسائل العين الكرى وتسائل الجنب الهجوع .

طال المكث على رجاء فتقطعت خيوط الأمل ، وأيقن أن حتفه يناديه وفى هذا المكان سيكون مصرعه.. وفى هذا المكان سيكون مدفنه ..

سيكون مدفنه فى مكان بعيد لا يجوده طل ولا يزوره حبيب .

فى سبيل من هذا العذاب وتلك الصعاب ؟

فى سبيل من أشرفت أن تذبل زهرة عمر زهرته جميلة ملؤها فتنة ، وملؤها نضرة؟

إنها فى سبيل الواجب وسبيل الوطن .

انساب هذا الخاطر فى رأسه فأحس الراحة تدب فى صدره دبيب الراح فى جسم عاشقها ، ثم تحرك لسانه بما جال فى نفسه فأخذ يقول :

« فى سبيل هذه الابتسامة أقدم الروح قربانا لك أيها الوطن .. ابتسامة

جميلة ابتسمتها الفضيلة حين عرفت ما هو الواجب فغفرت للريح من أجلها كل ما سقتنى من صعاب ، وجرعتنى من عذاب .

إنى لأبكى على مماتى أيها الوطن أموت قرير العيين، راضيا بأن تتهادى جثتى الروامى ، أو تلغ فى دمائى الوحوش .

وفى سبيلك أيها الوطن أنزل كأس الحتوف من على ثغرى ضاحك السن كما أنزل سقراط كأس السموم كذلك ، وسقراط مات شهيد العلم فلأمت أنا شهيد الوطن .

لئن وجدت موتة أشرف من ميتة الفارس على ظهر الجواد متقلدا سيفه حاملا رمحه ، عاملا فى عدوه السهام والقناة لكانت موتتى ، لأن هبة المرء عند الروع كثيرا ما يخلقها احتشاد الجوع ودوى الطبول ، وكثيرا ما يعظمها نشيد الجنود الذى يهز أوتار القلوب ، أما هبة المرء السلم فليست إلا من نشيد الفؤاد بحب البلاد .

وأنت يا إبريسم .. ففى كلاءة الله ورعايته إلى يوم يبعثون !

لقد توالت على خليلك الصدمات حتى أدمت رأسه ، وأضاعت من مرارتها صوابه ، فلله ما أشقانى بدهرى وما أشقاك بشقائى !

قد كنت أهوى أن يكون آخر عهدى بالحياة نظرة أتزودها منك ، أو كلمة أسمعها من فيك ، أو قبلة أرسمها على جبينك أو يمينك ، ولكن حجز الدهر بينى وبينك ، فلله ما أشقانى بدهرى وما أشقاك بشقائى !

يهون الوجد أنى أموت على العهد ، وأنى أترك من ورائى نفسا طاهرة وقلبا شريفا يعودنى فى قبرى — إن قدر أن يكون لى قبر — أو تحلق روحه مع روحى — إن كانت الأخرى — فيرفرفان ويتناجيان ثم بعد زمان

يفترقان ... يهون الوجد هذا ولكن الوجد مر وإن هان ، فلله ما أشقانى بدهرى وما أشقاك بشقائى ! وأنت يا سداد .. قد كنت أهوى أن أدفن بقبرك أو يبنى لى قبر جنب قبرك فى ذلك المرج المريع بين أصوات الرعاة وخمائل الأشجار ، ولكن باعدت بينى وبينك الأسفار ، وشط بى وبك المزار ، فأرجو أن تكون قريرا فى مقرك ..وإلى اللقاء يا عزيزى بعد قليل فأنا بانتظار وحش يلحقنى بك ، أو إغماءة أركبها إليك .

قال هذا ، ثم صاح :

— النجدة .. النجدة .

فلما لم يسمع إلا صوته ، عز عليه ذلك فخارت قواه وغارت عيناه ، ودرات به الأرض الفضاء ، واستلقى على ظهره ينتظر الحتوف . وهنا دخل فى إغماءة شديدة من برودة الجو وعصفة الرياح .

دار الجواد حول صاحبه لينظر ماذا أصابه ، بل أى الخطوب أناخ به .. فلما وجده صريعا بكاه بصهيل حنون لا تبلغ غايته الحمائم الهوادل ، وما لبث أن ردده حصان يسرى على الجادة ، فعلم فارسه أن هناك واقعة ، وأن النداء الذى طرق أذنه إنما كان صيحة ملهوف لا صفير رياح . تصاهل الفرَسان فاتخذ من هذا أنيسا يؤنسه فى سراه ، وطار نحو الصياح فإذا صريع مسجى على الرمال قد نسجت عليه الرياح غلالة من الغبار رقيقة ، فغطت ذلك الجسد الذى يدق فيه فؤاد كفؤاد المدمن ، أو أشد سكرة وأوهى وجيبا .

رآه كذلك فسرعان ما حمله على جواده ، وسار الجوادان يتناجيان

بصهيل رقيق كأنهما حبيبان أصلح بينهما العتاب . وما انتصف الطريق حتى تبدل الحال ووهنت الريح فرقت وصارت كلها لطفا ، والسماء لم يبق فيها إلا تفاريق سحاب تطل من فرجاتها الأنجم ، والليل ألقى لثام الدكنة ، والدكنة ألقت لثام الغبار ، والطبيعة خلعت ثياب التجهم ولبست ثيابا من البشر مفوفات ضافيات ، وصافح النسيم الندى وجه رجاء فأفاق فإذا به على ظهر جواد غريب تمسكه عليه يدان ناعمتان ، فصعد فى صاحبهما وصوب ، فإذا به فتاة تلعب الشمال بغدائر شعرها فتهفو معها وتضطرب ، فلم يكن عجبه لنجاته أكثر من عجبه لأنها فتاة بلغت من الجرأة والشفقة ما لم يبلغه نبلاء الرجال . فنظر إليها نظرة الشاكر العاجز ، وسألها بلسان المعجب المتعجب عما ساقها إلى هذا المكان فى مثل هذه الساعة المتأخرة ، فقد فات من الليل شطره أو أكثر من شطره ، فقالت له :

— أنا يا سيدى فتاة ممن نكبهم الدهر فى ذويهم فلم يبق لى إلا أخ من حراس الشواطئ ، ولقد مرضت أمى منذ مدة مرضا اشتد بها الليلة حتى وصلت علتها منتهاها ، وإنى لأظنها فى النزع تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكانت تهتف باسم أخى فلا تفتر عن الهتاف قليلا ولا كثيرا ، فعز على أن تموت وفى نفسها حاجة إلى ولدها ، وهى التى أكرمتنا ما عشنا وما عاشت فلم أبخل عليها بأن أخاطر فى هذه الليلة الرهيبة ؛ فما إن ركبت فرسى وأوغلت فى الطريق حتى سمعت صياحك وصهيل فرسك ، فطرت إليك مستأنسة بالصهيل حتى وصلت . فالحمد لله الذى أقدرنى على إنقاذ نفس أظنها من أطهر النفوس وأنقاها .

فقال لها :

— أوَلم تذهبى إلى أخيك بعد ؟

فقالت :

— إن من الواجب أن يضحى المرء بالقليل لينال الكثير ، وإن أمى ليشفيها من دائها أنى أصل إليها وأقص عليها هذا القصص ، فإنها يطربها ذكر الفضيلة طرب الغريب بأوبة وتلاق .

فضحكت أسارير وجهه ، وسرى عنه هذا الحديث الجميل ما أذاقته إياه الجبال ، وحدثها حديثا طويلا عرف منه بعض شئونها . أما هى فلم تعرف حقيقة أمره ، لأنه عاد إليه رشده وانتقل إلى صهوة الجواد ، وكان يجيبها عن كل سؤال جواب الماكر المضلل .

وعلى مقربة من شاطئ البحر ومنزل الحاكم افترق الجوادان المتحابان ، وافترق الراكبان اللذان نزل كل منهما فى نفس صاحبه منزلة لم يعرف أحدهما منتهاها .

حيرة القلب

جلس رجاء فى مقصورته المعدة له بمسرح من المسارح ينظر إلى الجمع المحتشد الذى يخافت بأنفاسه حتى لا يعكر صفو السكون ، فرأى بصره عالقا بممثلة تدعى « كميليا » أشهر ممثلات الجزيرة يدور معها حيث تدور .

فنظر إليها فرأى جمالا تتضاءل دونه الأقمار ، وتحسده على أغصانها الأزهار ، ولكن ما كان قلبه ليميل أو يصد عن هوى إبريسم ، فلقد شغل قلبه هواها فلم يترك فيه موضعا لسواها .

إلا أنه تسمع فرابه أن صوتها قد سمعه مرة ، لكنه لا يذكر أين سمعه . وما زال بذاكرته يسائلها حتى أجابت أنه سمعه ليلة التجوال فعجب كثيرا لهذا الأمر حتى كاد لا يصدق ، وظل فى عجبه وتفكيره حتى انتهى الدور وافترق الجمع ، فغادر المسرح بقلب ملئه حيرة كانت تزداد كلما ازداد ترددا وذهابا .

فلما كانت الزورة الثالثة أحس أن العاطفة قد تبدلت ، وأن هناك طارقا جديدا يستأذن على قلبه ، فخاف أن تكون هذه بادرة الحب وما الخوف من الحب إلا الحب نفسه ، ولئن أحب غير إبريسم فلقد خان الغرام ، ولم يرع له عهودا ولا آلالا .

هذا كتاب إبريسم .. كتاب مرضها ، قد جاء من أيام فلم يسطر لها جوابا وعهده بنفسه ألا يترك الكتاب إلا إلى اليراع والقرطاس ، فتساقطت عليه الذكريات فذكر إبريسم وكيف ينساها ، أم كيف تتداعى صروح هواها التى سهرا عليها وحرساها من الزمان زمانا طويلا ؟ أينسى ليلة المرض ليلة اشتدت به الحمى وانطلق بالهذيان لسانه ، ثم لم ينجه من هذا العذاب إلا خطاب إبريسم ؟

أم ينسى موقف الغرام ليلة التذكار ، وما تساقياه من كئوس الهوى الصافيات المترعات ؟

أم ينسى حسرة الوداع يوم الحديقة ، يوم نعب الغراب فأطار طائر الصواب ، ونثر عقود الدموع ؟

إنه لا ينسى هذا كما لا ينسى أنه لن يطيق صبرا عن المسرح ، فحدثته نفسه فى إحدى الليالى أن يستدعيها بعد أن مثلت دورها الطويل الجميل ليثنى على براعتها ، ففعل ، ولما مثلت بين يديه حيته بما يحيى مثله بمثله ، فرد عليها ردا كان مزاجه ابتساما ثم قال :

— أنا معجب بك كثيرا يا كميليا ، ولقد شاهدتك مرة فعشقت أن أشاهدك ، حتى لا ترينني أغيب عن مقصورتى إلا قليلا من الليالى التى لا أجد فيها من الوقت متسعا .

فقالت له :

— إن لى من عشقك لمشاهدتى غارا من الفخار أباهى به اللدات والأتراب ، وإن لى من ذلك العشق نسمات طيبات تحمل عبير الشهرة إلى

كل فج من فجاج الجزيرة ، وليس وراء الصيت فى الدنيا شيء يبتغيه فنان .

فقال لها :

ـــ إن لك علينا يدا يا كميليا ، وإنها لنعمة سابغة لا يتسع لشكرها الدهر ، وما جزاؤها منا إلا المحبة الخالصة والإخلاص الحميد .

فسكتت سكوت المستنكر المتحير ، لأنها لم تعرف لها يدا على أحد أعظم من يدها على ذلك الضال ليلة الريح العاصفة البرودة ، وما كان محدثها ليضل .

ولما طال سكوتها أمسك يمينها ثم قال لها :

ـــ لا شك يا كميليا أننى هو ذلك الضال الذى كتبت له على يديك النجاة ، وما كنت لأحيا بعد اليوم لولا هذا البنان الخضيب الذى مسح على الدهر وهو متنكر غضوب ، فاستحال ناعما عطوفا لم يعمل فىّ نابا ولا ظفرا .

قال هذا بلهجة المضطرب ، الذى يعج فؤاده بالغرام ويصطخب ، فأدركت أنه عاشق لا شاكر ، ودب دبيب من الرعب بين جانحتيها لم تعرف سببه ولا مأتاه ، وألحت على نفسها أن تسعفها بكلمة تخرجها من موقفها فلم تسعفها بالقليل ولا الكثير ، بل كانت فى مقصورتها كالدمية فى علبتها تطرق أذنها الأحاديث وكأن لم يطرق أذنها حديث .

وهكذا كاد موقف الشكر ينقلب إلى موقف غرام ، لولا ما صاح برجاء من عهود إبريسم وما عاوده من الأنفة أن يطول المقام وهما فى مقصورة المسرح .. فأذن لها فى الانصراف فانصرفت وانصرف وراءها بفؤاد اتخذ

منه الهوى ميدانا ومعتركا ، ولقى فى سبيل ذلك ليلة ليلاء ثقيلة الأقدام ، حالكة الظلام ، كانت تناديه فيها إبريسم كلما حام الكرى حول جفونه ، فيقوم من النوم مرتاعا مذعورا .

من رجاء إلى إبريسم

هنيئا لك شفاؤك يا إبريسم .. كف الله عنك يد العلات وألبسك من ثياب الصحة أسبغها وأحلاها .

إن المرء لا يعظم مصابا يرميه به الزمان ، إذا سها عن جوهرة الصحة واسطة عقد الحياة بعد أن هدده فيها وأنذره باختلاسها . فالحمد لله يا وديعة الله لقد حفظك حتى يعود مودعك إياه ، والله خير من حفظ الودائع والسلام .

لا ترعك رسالتى القصيرة ، فالشغل شاغل والوقت بخيل .

نجوى الحبيبين

الليل ساكن سكون المفكر ، لا تسمع بين جنباته إلا صرير الجنادب ومعمعة الضفادع .

وعيون الأنجم عيون ذوابل قد بدا بينها البدر وضاح الجبين ، تسبح رقعته فى رقعة السماء سبح الأفكار فى خاطر المرتاح ، وتسقط أشعته على صفحة

الغدير فتختلط فضتها بفضتها ، ويتألف من كلتيهما ضياء وضّاء تحسب من صفائه الغدير صهريجا من اللجين مسيلا .

والنسيم ينساب بين أغصان الدوحة على ضفته فتسمع لانسيابه وسواسا كوسواس الحلى ، أو نجوى الحبيبين رجاء وكميليا تحت هذه الدوحة قد طاب لهما المقام فأقاما ، كأنهما يرقبان الطبيعة المضطجعة فى سرير الليل ، ويسخران من ضجعتها لأنهما لا يعرفان الكرى ولا يعرفان السبيل إليه .

والحديث رقيق جميل تجرى به رسل النسيم فتسمعه بلابل الأغصان ، فتظنه لرقته سجع بلبل فتراها تغرد من حين إلى حين .

والهواء عطر عطرته أنات الغرام التى تبعثها القلوب ثم تتلاشى فى نقيق الضفادع ، أو حفيف الغصون .

والقلوب مترنحة خفوق ، تمثلها ثياب الحبيبين غير أن الثياب داعبتها النسمات ، والقلوب داعبتها النشوات ، وكلاهما كالأعلام طوع أنامل الهواء ، والأوتار طوع ريشة العزاف .

ورجاء يشكو لكميليا ذلك الحب الغريب الذى بدا فى فؤاده فجاءة كما يبدو الشهاب ، ويذكرها بسببه ويقول :

ـــ إنه ليس من العجيب أن يتحابا ، فقد تحاب الجوادان ليلة التجوال وتشاكيا الغرام بالصهيل كشكواهما الغرام بالأنين ! ولقد وقفا طويلا عند مفترق الطريق حتى كان الرائى لا يشك أنهما فى موقف الوداع ، وتلك قلوب الجياد وقد عرفت ما الهوى ، فكيف بقلوب الأناسى التى صاغها الله من رقة وحنان ؟

فتقول كميليا :

ـــ إنه يحلو كثيرا أن تذكر هذه الليلة وإن كانت ليلة كلها آلام ، ويحلو كثيرا أن تستعيد ساعاتها وصورها لأن قلبها كان لا يفتر عن الخفقان .. كأنما قد هبط عليه رسول كريم نبأه بما سيكون بينهما من هوى وغرام .

فيقول رجاء :

ـــ نعم يا كميليا إنها ليلة عطفت فيها عليّ الأقدار فسكن عجاجها واصطخابها ، وهدأ بحرها ثم ابتسم ، وما كانت لتسكن أو لتبتسم لولا أن رأتك أنت السفينة ، فشكرا لك يا واهبة الحياة ، لقد أصبحت هبتك وقفا على الحب والشكران .

وظلا فى مثل هذا الحديث الجميل حتى أحسا أن المقام قد طال ، وهنا ودعها وودعته ثم افترقا .

من إبريسم إلى رجاء

غابت رسائلك عنى يا رجاء ، فليت شعري ما الذى كان ؟ بل وأى شيء أصبرك على قلقى وأنت تعلم أن الساعات طوال أعدها وهى ثقيلة الأقدام .

كنت أعهد فيك أن الرسالة لا تكاد تستقر عندك حتى تكتب ، فليت شعرى ما الذى قصف اليراع وأراق المداد حتى غابت ، ثم جاءت جوفاء بتراء كلماتها كصفير الرياح فى مذلاًمى قصب مثقوب .

لعمرك ما حدثتنى النفس أن أخوض فى حديثك أو أتهمك فى عهودك .. حين جاءت رسالتك متأخرة قصيرة ، بل كنت حسنة الظن ظانة الحسن ساخطة على الوقت والشواغل ، فلما طال الغياب بدأت نفسى تحدثنى حديثا يأباه قلبى ، كما ابتدأ القلب الطروب يبلو مرارة الأحزان .

أهكذا تحول الحال ، وتتراجع الآمال ، وتشرف النفوس العزيزة أن تذل وتهون ؟

سنـة تلك قد بنيت عليها البداية ، فلما تزهر النجوم إلا لتأفل ، وما تنضر الزهور إلا لتذبل ، وما تولد الأحياء إلا لتموت .

الشك أليم للقلوب .. جحيم يملؤها حيرة واضطرابا ، ويصوغ لها من الأمور حلقات مفرغات لا ينتهى المنتهى منها إلا ليبدأ ، فترانى إن فكرت فى أمرك أطلقت تفكيرى ، ثم أتيت بثمره كثيرة المطاعن يريد كل مطعن فيها تفكيرا ودليلا .

أنا بانتظار كتاب منك يأتينى ، فلا تبخل بأقل شىء يقدمه الحبيب إلى الحبيب . وإن كنت لا تكتب إلى لأنك تحبنى فاكتب إلى لأنى اكتب إليك ، واعلم أنه كثير على القلب أن يفجع مرة واحدة فى أمله والسلام .

من إبريسم إلى رجاء

هل للقلوب سنات كما للعيون سنات ، ولها هجعات كما لها هجعات ؟

إن كان كذلك يا رجاء إذن فقلبك فى سنته ، وما كل سنة إلا إلى انجلاء . وسأصبر النفس بالنفس وأعزيها عنك بك ، حتى تعود حمامات الهوى الزواجل ، التى طالما جات بالرسائل ثم عادت بالرسائل .

سأصبر النفس بالنفس وسأذود عنها ما استطعت الهواجس ، وإن كنت لا أذودها إلا لتعود ، لأننى أخشى أن تكون مزقت وثيقة العهد وتركتها للريح تهفو بها وتطير كل مطار .

بين رسالتى هذه وسابقتها أيام قصيرها طويل ، وخفيفها ثقيل .. أيام كليلة الشتاء على المحب كنت أهوى أو تأتينى فيها رسالة ، لكننى طمعت فى غير مطمع ، ورجَّيت المياه من الجهام . أفلم تصلك الرسالة ؟.. ولم تغرق بحاملها السفينة ؟

كثيرا ما أخلو بنفسى يا رجاء وأجرد منها نفسا تشبه حياتها حياتى ، ثم أفكر .. أأدخلها فى عداد السعداء ، أم أدخلها فى عداد الأشقياء ، وأعمل جهدى كى أجعلها سعيدة لكننى لا أجد مناصا من أن تكون شقية .. فأرثى لها وأتوجع لحالها، كأنى لا أعلم أنى إنما أرثى لنفسى أو أتوجع لحالى ؟

لا أكتمك أن عزة النفس ستأبى أن أكاتبك بعد هذه المرة ، وأنى لن

أكتب إليك حرفا بعد هذه الرسالة الدامعة إلا إذا كتبت إلىّ . فاختر لنفسك ما تشاء وما يحلو ، واعلم أن ساحة القلب ملؤها خواطر لم أركن إلى أحدها ركون المصدق المتيقن ، بل أنا لقى بينها أصارعها وتصارعنى ، والنصر بيننا متبادل مقسوم .

إنى أعانى كثيرا يا رجاء فى الكتابة إليك ، لأن نفسى مضطرمة كدرة كسماء الشتاء يغشاها شتيت السحاب ، فعساك أن تسيرها بنسمات من رضاك .. تلك النسمات الطيبات العطرات التى فترت عن الهبوب دون أن يقف فى مهبها حائل ، واعلم أنك إن فقدتنى فإنما فقدت أوفى الأخلاء للأخلاء .

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى
يمينك فانظر أى كف تبدل

المسرح

بدت كميليا على خشبة المسرح فى ثياب غانية دلهت تاجرا من التجار وأحبته زمنا طويلا ، فلما أصابه الدهر فى ماله وكسدت تجارته تجافت عنه واتصلت بغيره على مرأى منه ، ولم يبق فى فؤادها من هواه لا رسم ولا طلل .

أما هو فكان على العهد يحبها كما كان ، لذا تراه راكعا بين يديها متخذا من عبراته وضراعته شفيعا إليها ، وهى لا تزيد إلا تجافيا ونفورا . وكانت تخاطبه

بلهجة تفيض كبرا واحتقارا ، وتقول له :

— ليس لك أيها الرجل إلا أن تسلونى وتقطع حبالك من حبالى ، لأنك لست أفكر فيك بعد اليوم ، فأنت لم تهبك الحياة من الميزات إلا مالك الذى أحببتك من أجله ، ومالك قد زال فزال حبى بزواله ، وما سمعت أن المرأة أحبت من الرجال من خلا من جميع المزايا.. فهى لا تحبه إلا لماله، لأنها تحب القلادة الوهاجة ، والملابس الشفافة ، والفراش الوثير ، والمركب الجميل ، والقصر والجنان ، والكئوس والعيدان .

أو لجماله ، لأنها تجد فى وجهه من اللذة ما تجده صاحبة الدمية فى دميتها حين تخرجها من علبتها ، وتنظر إليها ثم تودعها إياها .

أو لعذوبة منطقه وسحر بيانه ، لأنه يعرف بهما كيف يضرب على الوتر الحساس فى فؤادها فيملك عليها سمعها وبصرها ،ويذودها عن كل ما تهواه ، إن لم يكن فيه هواه .

وهنا جثا التاجر تحت قدميها واستحلفها بكل عزيز ، وناشدها الله والمودة ألا تسرع بالبت فى أمره ، فربما أقبلت عليه الدنيا بعد إدبارها ، وابتسمت بعد تجهمها ، لكنها وضعت أصابعها فى آذانها وثنت عنه الجيد والأعطاف .

وكان لهذا المنظر أثر جليل فى نفوس المشاهدين بكت منه عيونهم ، وتصاعدت زفراتهم ، وسرت فى أفواههم كلمات السخط والاستبشاع سريان التيار فى الأسلاك ، والخواطر فى الرءوس . وكان رجاء أول الدامعين الساخطين لما رأى فى قلوب النساء قلوبا تنافس الصخور الصلابة

والجفاء . ولقد ترك هذا المنظر فى نفسه أثرا كان ينغص عليه الحياة، فما تذكره فى ابتسام إلا قطب ، ولا تذكره فى شراب إلا غص ، ولا رآه فى منام إلا ذعر وتنبه ، لأنه رأى حبيبته تعرف بلسان حالها أن حبها له رهن هذا المنصب فهو باق ببقائه ، وسيفنى بفنائه ، أما حب إبريسم فهو لم يكن إلا لخالص الحب ، ولأن المرأة قد تحب الرجل لفضيلة فيه ، وما أقل اللاتى يهوين الرجال من أجل الفضائل ! إنك لا تجدهن إلا بين ذوات النفوس الشعرية الجميلة التى تخلصت من أرجاس المادة ومفاسدها ، وقليل ما هنّ ، وقليل أن ينهار غرام مأتاه الفضيلة لأنها سبب خالد باق ، وليست بالعرض الزائل ولا الظل المتنقل ، فللمال آفة وللجمال مثلها ، والحديث كثيرا ما تعرض عنه الغوانى أو كثيرا ما يكون أثره سريع الزوال ، فعاطفة المرأة مرنة متحولة ليست تقر على قرار .

أما الفضيلة فليست لها آفة ، إذن فما لحب أسس على الفضيلة من زوال .

هذا غرام إبريسم كان مأتاه الوفاء شاهدته فى رجاء فأحبته ، ولم يكن فى انقطاع رسائله عنها سبب فى خموده وانطفائه ، بل كانت تعتذر لها عنه كلما حدثتها نفسها بالهجران .

أدرك رجاء بعد مغادرته المسرح أنه إن خان إبريسم فلقد تخلى عن صفة أحبته من أجلها الملوك والأقيال ، إذن فبأى نجاد يحمل السيف بعدها ليخوض معترك الحياة ؟ أم بأى ضياء يغامر فى بحار الظلمات وظلمات البحار ؟

وهكذا آب بعد جمحته ، وانهزمت آخر كتائب الحب الجديد أمام هواه القديم ، وأدرك من ساعته أن للقلوب سنات كما للعيون سنات ، ولها هجعات كما لها هجعات ، وذلك ما قصته عليه إبريسم فى رسالتها الأخيرة .

من رجاء إلى إبريسم

يد الاعتراف يا إبريسم ستكشف القناع عن وجه الحقيقة ، وستنشر بين يديك صحائف الهجران لتعلمى أن ظاهرها غير خافيها ، ولترى أنى على العهد باق لم أمزق وثيقته أو أدعها لفيران البلى .

فى ليلة من الليالى تظاهرت على الذكريات فجزعت حتى خشيت على نفسى أن تموت أو تستحيل إلى نفس مسلوبة الحس لا تفرح ولا تجزع .

ورأيت أنه من الحسن أن أفر من وجه الهموم إلى حرس الشواطئ لأتفقده بنفسى فى هجعة الليل ، فركبت جوادى وقطعت به شوطا كان بعيدا ثم أدرته وقلبى ملؤه مسرة ، فالحراس متيقظون أيقظتهم محبة الوطن وأدفأتهم والليل قر نار الغيرة عليه من غارة الأعداء .

بدأت الريح تهب فحملت إلى رسائل الإنذار ، لكننى كنت وطيد الأمل فى أنها غمرة سوف تنجلى ، وأن هذه المخاوف التى تنتابنى إنما هى خيالات يصورها لى الشيطان حتى لا أعود إلى مثل هذه الأعمال ، وحتى لا أجيب داعى الله والوطن إن صاحا بى وأنا فى حلاوة الغفوة ولذة الأحلام .

هذا ما لهيت به النفس لتسهو عن فزع المخاوف ، لكن هبات الرياح

المنقطعة تتابعت وتتالت كوجيب فؤاد المضطرب ، وثارت منها معمعة تعج وتصطخب ، وسيق الجواد بسياط من الخوف فسار على غير هدى ورشاد حتى ضللت الطريق .

ضللت الطريق ويا لها من مصيبة لا يخففها عزاء .. الليل بارد ، والظلام حالك ، والطريق طامس ، والريح عاصفة ، والفؤاد كليم ، والجواد متعب يمشى بى كما يمشى الوجى الوحل ، إذن فما أعمل يا أبريسم وحيرتى تطير منها الرشاد ؟

ليس لى إلا أن أستغيث فاستغثت فلم يجبنى إلا طيفك بفؤاد حنون ، ودمع هتون . وماذ يجدى الحنان أو ماذا تجدى الدموع ؟ تلك هى مرارة الموت سأبلوها بعد مرارة الفراق فما أبشع كأسها ! إنى سأشربها وستشربينها من بعدى يوم يطير إليك النبأ أنهم عثروا على فى الصحراء فى قبر قد خططته لنفسى بنفسى ، إلا أن جثتى مشوهة قد عبثت بها الذئاب حين برد عليها الليل ، ثم طواها أليم الطوى .

هنا ذكرتك يا إبريسم .. وذكرت النعيم الذى تقاسمناه زمانا وكيف استحال إلى عذاب تتجافى منه الجنوب عن المضاجع ، فسالت من عينى دمعة مشتركة تقاسمتها لوعتان .. لوعتى على نفسى ، ولوعتى على فقدك .

بعدها لم أشعر بشىء ، ومكثت زمانا على هذه الحال ثم تنبهت ، فراعنى أن الطبيعة غير الطبيعة وأن المكان غير المكان ، ورأيت صحو السماء كأنه فى فم الدنيا ابتسام ، ورقة الهواء رقة البنان ، ورأيت نفسى على ظهر جواد غريب يسير من خلفه جوادى وتمسكنى عليه يدان ناعمتان . فنظرت فإذا

بفتاة سيرتها إليّ الأقدار فنجتني بعد أن دب فى جسمي دبيب المنون ، ولم يبق من أثر الحياة إلا فؤاد يودع الدنيا بدقات ضئيلات تكاد تنطق بالأسى وهى خرس صامتات .

كأنى بك سائلتى عما جاء بالفتاة إلى مثل هذا المكان فى مثل هذه الساعة ؟ فأقول : إنها ممثلة أخوها فى حرس الشواطئ ، ولم يبق لها من دنياها أحد سواه هو وأمه التى كانت فى نزعها هذه الليلة وكانت تهتف باسم ابنها ، فعز على فتاتها أن تموت دون أن تراه ، فركبت جوادها وسارت لتعمل على إحضاره ، ثم كان ما كان .

هذه هى قصتى يا إبريسم قصصتها عليك ، والله يشهد أنها لصادقة سطرها يراع الصراحة التى عبدتها فعبدتها من بعدك ، فأنت اليوم على علم بكل شيء .. لعل الهواجس تيئس منك وتنقطع عن طرق أبواب قلبك ، وإن كان يرضيك أنى أموت على مثل ما صورت لك .. أرضاك أنى لا أجعل لتلك الفتاة نصيبا من قلب وهبته الخفقات فلا يخفق بحبها ، ومن لسان وهبته الخلجات فلا ينطق بذكرها ، ومن يراع وهبته التقلبات فلا يمشى على القرطاس بحمدها .

إنها أحسنت إليك يا إبريسم من حيث لا تشعرين ، فأنا وأنت زهرتان على فنن واحد يسقيهما ماء واحد ، أو جسدان مفترقان يتردد بينهما روح واحد ، فأنت إذن تسعدين بسعادتى وتشقين بشقائى ، وأنا إن أحببتها فما أحببتها إلا من أجلك لأنها أحيتك إذ أحيتنى ، وأنا إن أخذت جزءا من سعادتك لأنفقه فى شكرانها فما هذا عزيز عليك لأن جميلها أعز وأكبر .

إذن فأفيقى يا إبريسم من غضبتك ، واستعيدى الأناة والروية ، واعلمى أن الغضب آفة العدالة ، فإن خلصت منه نفسك وصلت إلى حكم سديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإن كنت تريدين عتابى فعلى الرحب عتابك ، أو تريدين عقابى فما أصبرنى على النار ! وسأحتمل كل صعب فى سبيل رضاك حتى يعود قلبك إلى مثل رقة الغدير وصفائه ، والسلام .

من إبريسم إلى رجاء

أكتب إليك غير عاتبة عليك فيما فات إلا بعد تهنئتك . فهنيئا لك ما قد هنئ لى فطابت به النفس ، وانطلقت من عقال الهموم والأحزان .. ذلك العقال الأبدى السرمدى الذى فتلته يد الزمان فأحكمت فتله ، حتى ظننت أنه سينصدع الأجل دون أن يلم به انصداع .

فالحمد لله آن له أن ينصدع فانصدع ، وأصبحت طليقة بوادى السعادة أجىء فيه وأروح ، وروحى رفافة ناضرة كزهرة الربيع قد تطاير حولها مبثوث الفراش .

فما أجمل الفلق فى إثر الغسق ! وما أجمل الفرج من بعد القنوط !

إن الوصال بعد الجفاء لمثل الشفاء بعد السقام ، إنه للذيذ يصفق له القلب ويلقى بإزار الهموم وتنتعش له الروح فتنفض عنها غبار الكدر ، ثم تستحيل إلى روح خافضة جميلة بعد أن كانت يائسة قنوطا ، تقضى بياض

النهار وسواد الليل فى مناحة على أواصر الصداقة التى قضت ، فاتخذت منها قنطرة عبرت بها إلى شواطئ الهجران ، فما أكرمتها حية وما أكرمتها مدفونة .

ماذا كان منى يا رجاء حتى كان ما كان منك ؟.. أتذكر الرسالة التى كتبتها لتهنئتى بالشفاء وكيف قلت فيها « المرء لا يعظم مصابا يرميه به الزمان إذا سها عن جوهرة الصحة » ؟ لقد أخذت هذا على علاته فلم أظن بك سوءا ، فلما حلت بى المصيبة أيقنت أنك عزيتنى قبل حلولها ، وما ذاك إلا لعلمك بها وتصميمك على إيقاعها ، فعفا عنك الوفاء يا رجاء فما كنت إليه من المحسنين .

ماذا كان منى حتى يحل بى كل ما حل ، أم ماذا كان منى حتى تهجرنى رسائلك ؟ إنك إن التمست لى ذنبا لكنت كملتمس الخزف فى حوانيت اللآلئ ، ومتى كان اللآل خزّافا ، أم متى كان المحسن مسيئا ؟

لقد كان نومى مشردا ليلة ضللت ، لا يهنأ لى على جنب حتى كأن كابوسا مخيفا يرقبنى وهو قاعد لى كل مرصد ، وتسابقت إلىّ الظنون حين أحسست بلهفة عليك وشوق إليك لا يقلان عن لهفة البخيل على أغلى الكنوز ، كل هذا دفعنى إلى أن أعتقد أن حجب الغيوب — وإن كانت كثيفة — كثيرا ما تقتحمها أبصار القلوب .

إن نفسى اليوم هادئة صافية مثل صفاء الغدير ورقته ، ولقد انقطعت عنها اليوم تقلباتها .. تلك التقلبات النفسية التى تعرو الحبيب المهجور فتراه راضيا ساخطا ، ساخطا راضيا ، وأنا إن كنت عاتبة عليك فإن عتبى كسحابة الصيف تعترض السماء ثم تراها عما قليل صقيلة جلواء .

من رجاء إلى إبريسم

لقد سرنى رضاك يا إبريسم وهو حسبى من كل شىء ، لأنك أنت كل آمالى فى الحياة ! تربَّى أملى بين أحضانك فرعيته وحفظته فما اعتل يوما وما ذبل ، بل كان كالنبتة لاءمها الجو وأعجبتها التربة ، وتعهدها بالرى والسقيا .

وسرنى أن نفسك أصبحت صافية هادئة عليها بهاء يخجل منه الربيع وهو الساحر الفتان ، الذى ضربت بجماله الأمثال .. إذن فلقد انجلت تلك الغمرة التى كان منها ثغرك فى كم لن يتفتح — كما كنت تقولين — إذن فمتى يوم اللقاء ؟

متى يوم اللقاء يا إبريسم ؟ حتى أعود إلى ساحات الهوى وعرصات الغرام التى حفت بأشجار السعادة يفىء علينا ظلها أنّى نجىء وأنّى نروح .

وإلى تلك الحديقة التى كانت بالأمس مصرعنا — وإن لم تسِل لنا على ثراها دماء — لأرى هنالك ما فعلته فى تربتها دموع الوداع ، لعلها أنبتت نبتا وأزهرت زهرا غير معهود لعلماء النبات ، فهو زهر أسود اللون يتخذ منه العاشقون شارات الأسى عند الرحيل .

إنك لم تقسى علىّ يوما فى رسائلك فى تلك الفترة التى يسمون ظاهرها هجرا ، والتى أسميها أنا — وأنا أعلم الناس بها وأخبرهم بشئونها — أسميها

« خفقات السكينة » لأن الله جعل للمحبين المشتتين غفوات تغفوها قلوبهم فترى بين خفقات الغرام خفقات تملؤها السكينة ، وما ذاك إلا عطف على العاشقين ورحمة ، ولولاها لالتهبت قلوبهم شوقا وانصهرت نفوسهم لوعة .

لم تقسى على يوما يا إبريسم ، ولكن كان لى من تذكارك قسوة لا تعادلها قسوة ، فكان له وهو الصامت الجامد حديث يملؤه العتاب كنت أفر منه فرار المدين من وجه الدائن ، أما اليوم فلقد هجر مثل هذا الحديث وأصبح لا يحدثنى إلا بعهود الجمال .. وجمال العهود التى أعتقد فيها أنها لو نفثت لى رق وأنا فى النزع لطارت عنى غفوة الموت ثم دبت فىّ الحياة .

كنت لا أرى فى المنام خيالك ، أو أراه جامحا متجافيا يزورّ عنى حين أدعوه ، ثانيا عطفه ثانيا جيده ، وجيده يملؤه الجفا والدلال . أما اليوم إن طرق باب المزار دخل كما تدخل الطير أعشاشها على أفراخها ، فكأنك كنت علمته كيف يجفو فجفا ، ثم عدت علمته كيف يرضى فرضى . إنك ما علمته شيئا وما ينبغى لك ، ولكن هو الطيف يأخذ عن المرء بلا دروس ولا تلقين .

لقد عادت حمامات الهوى الزواجل التى كانت تؤدى الرسائل — كما تقولين — فلتحمل إليك باقات السلام حوت كل فاتن نفّاح ، ولتجب بها لجج البحار التى أهوى أن أطويها إليك ولو فى آخر أيام الحياة .

من إبريسم إلى رجاء

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لا تفرج

لم أنم فى ليلتى هذه إلا كما ينام الحارس الأمين تملأ اليقظة عينه وفؤاده ، لأن أبى حدثنى حديثا وقع من نفسى موقع الكأس من نفس عاشقها ، حتى قضيت ليلتى فى روضة الأمل أجىء فيها وأروح مثل الشارب الثمل ، بين القيان وبين الراح والوتر .

أتدرى ما هو هذا الحديث ؟... هو نبأ عودتك إلى القصر وتولى غيرك حكم الجزيرة ؟.. فيا له من حديث جميل ضحكت منه أفواه الرجاء غير ضحكة الساخر ، ويا له من حديث جميل دمعت منه عيون القنوط غير دمعة المسرور .

رأينا القصر لا غنى له عنك، أما الجزيرة فغيرك يحكمها مهتديا بهديك مستوحيا سياستك التى تمليها حدة البصيرة ، حتى أصبحت بها الجزيرة هادئة قريرة تفىء عليها ظلال السلام .

أمنية تلك ما تحدثت بها الآمال فى سوانح الأحلام ، حين كنت أراك فى القصر فى مكانك الأول فأقول حين أقوم : « ومن ينم على الظما يرد عذاب الموارد » ، أما اليوم فلقد هويت صفير البواخر كما هويت غناء العنادل ،

يهزنى الشوق عند سماعه فأنتفض انتفاضة الشجعان هزهم للوغى نداء النفير .

إن قلبى ليرتل أهازيج اللقاء ترتيلا تردده الطير فى وكناتها ، والجداول فى منحدراتها ، والأوتار على عيدانها ، وتسمعه قلوب العاشقين فتشهد أن هوانا أطهر ما خفقت به القلوب ، وتشهد أنّا حاملو لواء الحب تمشى من ورائنا جنود الأفئدة سالكة ما سلكنا من عذاب أو نعيم .

إلى اللقاء يا رجاء ، ويوم اللقاء يوم الحياة ، يوم تبعث فيه النفس من ظلمات القبور فترجع الخفقات إلى القلوب وترجع الآمال إلى الصدور ، وترجع الأحاسيس إلا الجوارح وترجع البسمات إلى الثغور ، ثم تعود إلى الجسم كل آثار الحياة .

قل لضحايا الزمان هونوا عنكم ، فإنّا شربنا مرارا على القذى ثم رقت مشاربنا وراقت ، فهى اليوم سائغة جميلة لا تمجها النفوس ولا تملها الأبصار .

من رجاء إلى إبريسم

بعد أعوام طويلة شاء الله أن نعود وأن يتصل حبل أعمل فيه الزمان مقراضه ففرق بين ناحيتيه . فسأعود قريبا يا إبريسم وسيعود إلىّ قلبى عندما أسمع رنة الصفير — صفير السفينة — الذى أصبح فى مسمعى ألذ من الحداء .

لا أستطيع أن أصور لنفسي كيف يقوى فؤادى على احتمال سعادة سيتمخض عنها الغد القريب ،تلك السعادة التى ما كانت لى بخاطر ولا حسبان ، وأخشى أن يطير القلب منها سرورا فلا تحجزه جنبات الصدر ، فاسألى الله أن يكتب لنا سلامة اللقاء لأن دعواتك طاهرات طهرتها ديمة الإخلاص ، ولأنها تتخذ من طهرها معراجا تعرج به إلى ربها فيقبلها ويلبيها بأسرع مما تلبى دعوة المظلوم .

إنى لأخلو بنفسى أحيانا فأسائلها عن سرورها فتحدثنى بأنه عظيم تمازجه الخشية ، حتى كأنها لا تكاد تصدق نبأ اللقاء وهو نبأ حق تحدث به كتابك الصادق . عند ذلك أحس بألم من حديثها وامتعاض أسقيها مثله بملامتى وتأنيبى وإن كان لسان حالى يقول :

وإنى لأخشى أن أمــوت فجــاءة
وفى النفس حاجــــــات إليك كما هيا

فى النفس حاجات إليك يعيا بحملها البريد وإن كان لا يعيا ، وفى النفس حاجات إلى أربع وملاعب شق الشباب بها التمائم ، وفى النفس حاجات إلى مهد الوطن ، ذلك المهد الناعم الوثير الذى طالما استلقيت فيه استلقاءة المنصت إلى نشيد الطبيعة ، وكان ـــ وبودى أن يدوم ـــ نشيدا رقيقا تصغى إليه القلوب قبل أن تحسه الآذان .

ما كنت أدرى فجعة البين حتى قيل أن قد جىء بالسفن ، وما كنت أدرى خفقة الأمل حتى قيل أن قد جىء بالسفن ، ففى ليلة كانت ركوب الشقاء فسالت فيها مدامع الألم ، وفى ليلة كانت ركوب السعادة وسالت

فيها مدامع الأمل ، ومدامع الأمل كمدامع السحاب كلاهما يهمى على ذابل فينعشه ، وينزل على ميت فيحييه .

إلى اللقاء بعد قريب يا إبريسم .. مدى إلىّ يمينك لتصافح يمينى وإن كان بينى وبينها بحار ، والسلام .

البحـــر

سارت السفينة والشرق على الشمس مُسبل الجفون ، والكون لم يزل فى سنته عليه آثار من آثار الجلال خلفها الليل لم تصل إليها ضوضاء النهار ، والطير سابحة فى السماء تارة محلقة على الماء وتارة لا تسمع منها نعيبا ولا تغريدا ، وجلدة البحر تكسوها غلالة ضبابية فضفاضة تبين من فرط رقتها تجاعيد الأمواج كما تبين أضلاع النخيل .

والسفينة تمشى الهوينى بصفير متعال يزعج الأطيار فتخف إلى الأوكار على فروع الأشجار .

الأشجار غسلتها الأنداء من أتربة الجزيرة ، فعادت كنفس التائب إذ ينقيها من الدنس المتاب .

ونسيم الصباح رقيقة أنفاسه، يمشى على الماء مداعبا حلته الضبابية فتهفو معه وتضطرب فيضطرب البحر اضطرابة الحسناء كشف النسيم عن ساقيها فأعجبها اعتدالهما فمالت من عجبها رقصا ودلالا . وأنداء الفجر تشرب منها الطير ثم تهبط إلى البحر فتنال من أسماكه ، فإذا أحست طعم مائه

سبحت بحمد من خلق هذا وهو عذب فرات سائغ شرابه، وهذا وهو ملح أجاج .

والشمس لاحت من المشرق فخلع الكون آخر ثوب من أثواب الجلال ، وسبحت السفينة فى لجة ذهبية تجرى إلى الأوطان بأقدام خفيفة إلا أنها ثقيلة أمام رجاء ، فهو يهوى أن تحمله سفينة الريح إلى شواطئ ودعها من زمان بعيد تاركا فؤاده هناك نزيلا عند أهليها ، سابح فى نشوته ، يبدو له على أفق الوطن سراج وهاج من الأمل ، تهتدى بهديه السفينة وهو ماثل لا يتلجلج ، ساطع تلمع أشعته بأبهى مما تلمع به الشمس ، قد طمى ضوءه على الطامى العباب ، فصار بحرا من الأمل تجرى به سفينة روحية تسيرها المنى بأشرعة ومجاديف ، ولكن مالها إلا إبريسم مرسى ترسو عليه ، وما لها إلا إبريسم ثغر تأوى إليه .

* * *

وقفت إبريسم على شاطئ البحر ترقب السفينة بصبر لا يزيد عن صبر غارقة فيه ، وعينها فى محاجرها تدور كما رقصت بالنرجس الأغصان ، والآمال حلوة ضحوك صورت لها من الأمواج حسانا عاريات تمشى على الأمواه مترنحات راقصات ، مرددات أهازيج السرور بنغمات حنون تهتز لها القلوب الجريحة ، وتسكن منها الأنفاس الحرور .

وقفت وفى مثل هذا وقفت ، وما لبثت أن بدت على الأفق أدخنة السفينة أعقبها الصفير ، فلما سمعه غراب النوى طار بعدما جثم زمانا طويلا افترقه الحبيبان ، وشربا طواله غير السائغ المرير .

طار غراب النوى وما كاد يرتفع حتى انحط انحطاطة أبدية رجفت بالفتاة

لها الأرض ثم بدّلت غير الأرض ، وانشقت السماء وبدلت غير السماء ، كأن العالم اختل نظامه الكونى ، وللبحر ثورة وفورة ترتجف لها الشواطئ ، فوقفت مكانها حيرى مولهة لا تدرى ماذا ترى ، ولا تعى ماذا تحس ، وعيونا كعيون المحتضر تنظر إلى السفينة لا تحيد عنها كأنما قد استحالتا إلى مسمارين فى ألواحها ، تنظر غير مصدقة لما تراه ، وعجيب أن ترى الألواح ، وقد استأثرت بكل لوح موجة ، ثم تقف بعد هذا يتنازعها الشك واليقين .

ما كادت السفينة تنسلخ عن دائرة الأفق حتى سمع من على الشاطئ دويا قعقعت له قبة السماء ، وانبعث فى أثره دخان كثيف كنت لا ترى من خلفه لجة البحر . فعلموا أن الخطب قد أناخ وأن الباخرة قد انفجرت فلمعت نيرانها التى تلقفها الماء فكان لالتقائهما صوت مخيف . وسرعان ما انطلقت من الميناء قوارب النجاة تجرى إلى مكان الحادث بمثل ما تجرى به الأمهات حين يتسارعن لإنقاذ أولادهن ، وتعالى صياح من على الشاطئ ، واشتد التزاحم والتدافع ، وتسابقت عبارات الأسى والتشجيع ، وإبريسم من بينهم لا تشير ولا تقول ولا تصيح ولا تعول ، فقد عقل الخطب كل شىء فيها وكل جارحة من جوارحها ، والأمواج قاسية ظالمة ، والبحر مرغ ومزبد كأنما هوى فيه جبل من الأجبال ، والغرقى يصارعون الموت ، والموت غلاب حديد البراثن ، وينظرون إلى الزوارق نظرة الملهوف إلى مغيثه ، وهى تسير على غوارب الأمواج وكأنها لا تسير ، ورجاء من بينهم يطفو طفوة المستسلم ويغور غورة العاجز ، شأن كل فتى لا يجيد السباحة ، وكل محب يوقن أن حبيبته بين الواقفين تنظر إلى البحر نظرة الراعى إلى الذئب ،

وكبدها موزعة منقسمة نصف فى الجنب عذابه اللوعات ، ونصف فى البحر عذابه الموجات .

انتشر البحارة فى كل صوب ينتشلون الغرقى وكان رجاء بين المنتشلين ، وساروا بهم إلى الشاطئ وهم لا يعلمون بماذا حكم الله فى أمرهم . فلما وضعوهم وتصفحوا وجوههم ألفوا رجاء لا تزال فيه بقية من الروح كبقية من النور التى تبعثها الذبالة جف من حولها الزيت ، فعالجوه حتى رفع بصره ، وبدت حدقة عينه تستعرض الحاضرين . فلما رأت من بينهم إبريسم طغى عليها الدمع حتى ما كادت ترى ، ثم انطبقت عليها الأجفان وصعدت روحه فى هذه النظرة .

هى النظرة الأخيرة ، أو خلاصة الحياة ، تزجى دمعها الذكريات وهى حائمة فى خاطر المودع ، فإذا جرى على الخد جرت له جامدات الدموع ، وما الدموع إلا جليد صهره الهم ثم ذاب الأسى فى مائها ذوبا .

هى النظرة الأخيرة يسبل المرء بعدها الجفن ، فتسبل الأجفان آمال الحبيب ثم تقضى كمن قضى ، ولا تبعث إلا يوم يبعث .. تبعث هناك فى دار خالدة لا يعصف فيها يأس بمصباح آمال .

بسطوا الغطاء على وجه رجاء على مرأى من إبريسم ، فوقفت مكتوفة اليمين لا تستطيع نقضا ولا إبراما ، وانقطعت سلسلة هذه الحياة كما تنقطع حياة الورود ، فغادرت مكانها هذا إلى مكان خلت فيه بنفسها .. وأطلقت من عقالها الدموع التى كانت تؤمل أن تكون دموع السرور ، وانتظرت الساعة التى تحمل فيه الجثة ، وهى جثة كريمة قضت حياة كريمة وماتت ميتة

كريمة على سرير الماء ، وإن كان سريرا قاسيا لا يحنو على من اضطجع فيه .

* * *

هناك فى المرج الأول الأخضر الواسع وبين لجب الرعاة ورغاء الشياه ، وحفيف الغصون وخرير المياه ، وبين أشجار الخميلة الكثيفة التى تسمو بها أشجار الكافور فيراها السائر على بعد مرحلة طويلة ، وتجاه قبر سداد يرى قبر رجاء ، وبينهما لاحب قصير زينت جنبيه أزهار الربيع الزاهية الشذية ، فإن حام حولها النحل سمعت له طنينا حنونا تظنه قصائد من روى واحد يرثى بها الصديقين الوفيين ، وما أجمل الصداقة إذا ما استغرقت مدة الحياة ! وما أجمل قبور الأصدقاء حين تتقارب مرفرفة على هامتها ألوية الوفاء !

النهــاية

مات رجاء فشاء الله أن ينكشف حب ضاق به فؤاد إبريسم ، فلقد كان لأبيها من طول حزنها على خليلها آية على حبها ووفائها ، فلم يحزنه هذا من أمرها ، ولكنه أشفق عليها فتركها تعمل كل ما تعتقد أن فيه تسرية للهم عنها . فكانت كثيرا ما تختلف إلى المقبرة ، فإذا ما توغلت فى خميلتها ومالت إلى يمينها رأت قبر رجاء فتجلس إلى بابه بغدوة أو أصيل تبكى شهيد الزمان ، ويشركها فى بكائها الربيع فيخيل لها أن الطير فى أعشاشها تنوح ، والمياه فى ينبوعها تفور ، وأن كل صوت من أصوات الطبيعة صوت حزين قد ملأه الأنين .

فإذا ما شفتها الدموع مالت إلى يسارها فرأت قبر سداد فتجلس إلى بابه بغدوة أو أصيل تبكى شهيد الحظ ، ويشركها فى البكاء رجاء فى قبره حتى كأنها تسمع من خلال القبر أنينا ضئيلا يبعثه ميت ضئيل لم تترك له أمواج البحر أثرا من قوته ولا عينا ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

« تمــت »

من وراء هذا الحائط ....

من وراء هذا الحائط تنامين يرفرف الجمال على صفحتي وجهك ، وتحلق الأحلام فوق سريرك متهافتة على تلك المحاسن .. تهافت النحل على نضير الورود .

يهبط إليك الحلم الجميل كما هبط ملاك على ملاك ، ويقبل شفتيك . فتبتسمين تلك البسمة التى لا تكاد تضىء حتى يسيطر عليها سلطان الكرى ، فتُرى كنظرة المفتون يسترجعها خشية أن يراها الرقباء . ليس يقف سُمك الحائط بين فؤادى وسريرك وإن وقف بينه وبين النواظر ، كأنه قد استحال إلى زجاج الكأس يشف عن خمر الأنوثة التى حواها الفراش ، فهو يروح حولها ويجىء مطالعا جمال القسمات تحت ستر الظلام .

لو كان للأجسام خفة الأرواح لطار جسدى واخترق ما بيننا من حوائل ، كل هذا ليتقابل الثغران ويجرى بين شفتى رحيق رضابك ، فلقد أظمأتنى الكئوس من يوم أن لمحت صفاء كأسك ، ومقت الوصال من يوم أن بعد جميل وصلك .

أنت كالشمس يملأ البطاح شعاعها ولكنها بعيدة المدى والمنال ، تبدو رقتك فتحيى رميم الأمل ، ثم لا تلبث أن تصير كسبائب السراب ، فمتى تطابق الحقيقة الظاهر ، ومتى يا عزة يقضى الدين بعد المطال ؟ إن أعرضت

حييت وإن حييت أعرضت وإن جمعنا الطريق من غير قصد استتر بدر وجهك خلف سواد القناع ، لئلا يضل منه إلى فؤادى شعاع يمحو جانبا من سواد يأسه . فوالله لو كنت بائعة الآمال ما حييت فيها ساعة بأمل ، ولكنك إن تسلطت على الوصل فمالك على الرجاء من سبيل .

ما التقينا حتى ودعنا ....

ما التقى الوجهان حتى تعارف القلبان ، وانقلبت غربتى وغربتك إلى وطن هادئ جميل ، وأنست النفس بتلك الوداعة التى شابهت وداعة الحمام ، هادئة فى العش ، هادئة عند الرضا ، هادئة عند الغضب .

كأنما نفسك جدول يجرى وسط سهل رملى وثير ، لا يعترض مجراه صخر ، ولا تقف فى سبيله حصاة ، فلله ما تلاقى الأنفس الوديعة من عنت الزمان ، وتنكر الأيام .

لاموك على أن أنست بأناس شابهت براءتك براءتهم ، فكنتم لما التقيتم كقطرتين من الطل امتزجتا على غصن طليل ، فلله ما تلاقى الأنفس الوديعة من عنت الزمان ، وتنكر الأيام .

كنت مع الصباح صباحا يشرق فتتقلص أمامه جنود الظلام ، وكنت مع بدر المساء بدرا يضحك ، فتضحك معه ثغور المنى التى طالما أذبلها الوجوم .

على الرغم منك اختفيت وكنت لو خيرت تودين يا عزة الخلود ، وعلى الرغم منك تواريت وكنت لو خيرت تحبين يا عزة البقاء ، فلله ما تلاقى الأنفس الوديعة من عنت الزمان ، وتنكر الأيام .

يسود الظلام من بعد غيابك ، كأنه قد لبس فوق سواده الحداد ،

وضوء النهار باهت لا يملأ العين نضرة ، ولا القلب سرورا .

عددت الساعات من بعدك فأعياني عدها ، وكانت من قبل تمر كما تمر الأحلام .

فيا ليتنا ودعنا ، أو يا ليت اللقاء لم يكن كان .

رقم الإيداع ٣٢٨٦

الترقيم الدولى ٢ — ٠١٥٥ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه